النفس
وصفها وتزكيتها
فوزي محمد أبوزيد
دار الإيمان والحياة

النَّفْسُ

وَصْفُهَا وَتَزْكِيَتُهَا

فوزي محمد أبوزيد
فضيلة الشيخ

دار الإيمان والحياة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتـــــــاب	النفس .. وصفها وتزكيتها
المؤلـــــــف	الشيخ فوزي محمد أبوزيد
الطبعـــــــة	الأولى
الطبعة الأولى	السادس من جمادي الأول ١٤٣٠هـ - الثلاثون من أبريل٢٠٠٩ م
عدد الصفحات	١٦٠ صفحة
المقـــــــاس	١٧ سم × ٢٤ سم
الـــــــورق	٨٠ جم
الطباعة الداخلية	١ لون، أسود
الغـــــــلاف	كوشيه لامع*٢٥٠ جم
طباعة الغـلاف	٤ لون، سلوفان لميع
إشـــــــراف	دار الإيمان والحياة، ١١٤ ش ١٠٥ – المعادى - القاهرة، ت: ٠٢٠٢٥٢٥٢١٤٠، فاكس ٠٢٠٢٥٢٦١٦١٨
طبـــــــاعة	دار نوبار للطباعة
رقم إيداع محلى	٢٠٠٩/٩٤٩٢
ترقيم دولى	ISBN: 977-17-6989-3

الحمد لله رب العالمين

مُقَـدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على جميل نعمه، وعظيم مننه، التى غمر بها الإنسان، حتى جمَّله بجمال الخلافة عن حضرته في الأكوان.

والصلاة والسلام على خير إنسان تسربل بخلافة الرحمن، وتجمَّل بأوصاف الله ﷻ في الأكوان، سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه، وكل من تجمَّل بخُلُقه، وسار على هديه إلى يوم الدين .. آمين .. آمين .. يا ربَّ العالمين.

فالنفس البشرية معرَّضة دائماً للفتنة والغواية؛ فإذا تُرِكَتْ وانحرافها وحالها دون أن ننصحها ونربّيها ونعلّمها؛ دأبت بحكم جبلَّتها إلى المعصية، وازدادت في إعوجاحها حتى يصبح ذلك طريقها وغايتها، ومنطقها وعادتها ... فلا تعرف غير حظَّها وهواها ولذَّتها، فتسقط في مكائد الشيطان، وهذا ما يقع فيه كثير من الناس، ولذلك قال الله تعالى في وصفها (٧-١٠:الشمس):

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾

ولكى تنتصح النفس ويعتدل مزاجها، وتتحسن طبيعتها، وتسير في توافق ومحبة مع الآخرين، تحتاج إلى طبيب عارف بالنفس البشرية وخواطرها الشيطانية والملائكية، ومرَّ بالتجربة السلوكية، وتفهَّم باطن الإنسان قبل ظاهره.

فإذا ما تيسر للمريد الصادق أن يقدم نفسه إلى طبيبه طالباً للعون والمساعدة، فيصدق معه في القول والفعل، وينتصح بأمره، ويخلص له ظاهراً وباطناً، فلا يُخفِى عليه

خواطره الشيطانية، ولا يكذب عليه في إحساساته الشهوانية ... عندما يكون هذا حاله من الصدق؛ يرشده الطبيب النفسى وهو شيخه المربِّي فيساعده على تخطى العقبات، وينجِّيه من العثرات، فيقوى في نفسه اليقين، ويعلِّمه الإستقامة، فيستنير قلبه بالعلم والمعرفة، ويشرق قلبه بالصدق والحق.

فيكون المريد سيِّداً على نفسه بعد أن كان عبداً لغرائزه، فيرفض دواعى الشهوة مقتدياً بشيخه وطبيبه، مقبلاً على ما ألقاه في روعه من حبِّ الطاعات وعمل الخيرات وتقوى الحق تبارك وتعالى، فيتحلَّى بالصفات المحمودة، ويتخلَّى عن الصفات المذمومة، ويتعاون على البرِّ والتقوى؛ فتتكامل شخصيته ديناً ودنيا، ولا يفكر إلا فيما هو حقٌّ وصدقٌ، ويبعد عن كل ما هو إثمٌ واعوجاجٌ وانحراف، وتصبح نفسه عامرةً بالإيمان، طالبةً للاستقامة، عاملةً في طريق الإصلاح والبناء؛ كلُّ ذلك بفضل حكمة الطبيب المربِّي وإخلاصه وعلمه ودرايته.

ولذلك رأينا الصوفية وقد بلغوا الغاية في جهاد نفوسهم، يبرعون في وصف النفس، وشرح عللها وآفاتها، وبيان طرق تزكيتها وجهادها، وإن كان البعض لم يستطع أن يفرِّق بدقة بين أوصاف النفس ومقاماتها لدقَّة هذا المجال؛ إلا أن الصوفية عموماً خير من تحدث عن النفس، وخاصة أن حديثهم عن تجربة ومعاناة، وليست دراسة فكرية وفلسفية فقط!!

والحمد لله، قد وفقنا الموفق ﷻ، فانتهجنا في هذا الكتاب منهجاً جديداً وفريداً في الحديث عن النفس؛ حيث بيَّنَّا أنواع النفوس من حيث أغراضها ووظائفها ومنازعها فى المملكة الإنسانية وذلك من سياق القرآن والهدى النبوى.

وكذلك تحدثنا عن علل النفس وأمراضها، ووصفنا الدواء الناجع لكلِّ داء من شفاء القرآن، وصيدلية السنة النبوية، وهدى السلف الصالح.

ووضَّحنا بعد ذلك المقامات التى تترقى فيها النفس في جهادها لهواها وأغراضها، ووصف كلِّ مقام والحال الذى يأنس به صاحبه فيه، والواردات والإلهامات التى تفاض

عليه في هذا المقام، والإشراقات التى يحظى بها من الله ﷻ.

واسترشدنا بأحوال الصحابة المباركين والسلف الصالح في مجاهداتهم الفادحة لأنفسهم .. رضى الله تعالى عنهم أجمعين.

وحسبنا أن هذا الكتاب يعدُّ أول كتاب مكتمل فى هذا المجال، وقد سمَّيناه:

" النَّفسُ وَصفُهَا وتَزكِيَتُهَا "

والله من وراء القصد، وبه التوفيق، وله المِنَّةُ علينا من قبل ومن بعد، وهو وحده الهادى لأقوم طريق.

وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم

الجميزة: مساء الخميس ٢٧ من ربيع الآخر ١٤٣٠هـ
الموافق للثالث والعشرين من أبريل ٢٠٠٩م

البريد : الجميزة ـ محافظة الغربية ،جمهورية مصر العربية

تليفون : ٠٠٢٠-٤٠-٤٣٤٠٥١٩

موقع الإنترنت: WWW.Fawzyabuzeid.com

البريد الإليكترونى: fawzy@Fawzyabuzeid.com

fawzyabuzeid@hotmail.com,

fwzyabuzeid48@gmail.com,

fawzyabuzeid@yahoo.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الشمس)

الفصل الأول

وَصْفُ النَّفْسِ

ما النفس؟

○ أنواع النفوس ووصفها

- أولاً: النفس الجماديَّة
- ثانياً: النفس النباتيَّة
- ثالثاً: النفس الحيوانيَّة
- رابعاً: النفس الإبليسيَّة
- خامساً: النفس السبعيَّة
- سادساً: النفس الملكوتيَّة

– إشارة لطيفة: الخاطر الأول

- سابعاً: النفس القدسيَّة

﴿ قَدِمَ النَّبِيُّ مِنْ غُزَاةٍ له، فقال لأصحابه ﷺ: قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَم، وَقَدِمْتُمْ مِنْ الجِهَادِ الأصْغَرِ إِلَى الجِهَادِ الأَكْبَرِ. قالوا: وَمَا الجِهَادُ الأَكْبَرُ يا رسولَ الله؟!! قال: مُجَاهَدَةُ العَبْدِ هَوَاهُ ﴾[1]

[1] قال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء: رواه البيهقى بسند ضعيف عن جابر رضي الله عنه، ورواه الخطيب فى تاريخه.

الفصل الأول

وَصْفُ النَّفْسِ

مَا النَّفْسُ؟

ما النفس؟

أو .. ما النفوس التى أجاهدها؟

وقبل أن أتناول هذا الموضوع المتشعب، لا يفوتنى أيها القارئ الكريم أن أنبّه إلى أننى أقتصر فى هذا الحديث عن النفس، من ناحية كتاب الله، وسنة رسول الله، حيث حرص الصوفية – فى كل زمان ومكان – على ألا يشغلوا السالك بالتعريفات الفلسفية عن النفس، وما قاله فيها الفلاسفة وعلماء النفس قديماً وحديثاً، لأن هذا فى نظرهم علمٌ لا يضر جهله، ما يحتاج إليه المرء هو الذى يحرص على تعلمه، وما يحتاج إليه فى كل عمل ليبلغ أمله.

فأقول وبالله التوفيق: أن النفس هى القوة الغيبية التى تسيِّر الجسم، وتجعله يسير ويتحرك ويمشى فى هذا الكون.

أو بتعبير آخر: فالنفس الإنسانية، أي: التى خلقها الله فى الإنسان نفساً – هى الجوهر المهيمن على القوى الربانية الجسمانية التى تسير هذا الإنسان فى حياته الكونية، فلها السيطرة على القوى الغذائية، وعلى القوى الهوائية، وعلى جهاز ضخ الدم، وعلى كل القوى التى تعمل في داخل الإنسان.

ولذلك ترى نفسك تفعل ولا تستطيع أنت أن تتحكم في هذه الأفعال إلا إذا أراد الواحد المتعال، فأنت تأكل لكن هل تستطيع أن تحرك جهازك الهضمى ليهضم الطعام كما تريد في الوقت الذي تريد؟ ... أبداً، وذلك لأن الجهاز الذي يسيطر يتلقى من الحميد المجيد وليس منك!!

فأنت مَنْ تُناوِل الطعام وتُدخله، ولا تستطيع أن تتناول إلا إذا يسَّر لك المفاصل وجعلها تستجيب لطلبك ولأمرك فتحمل وتعطى لفمك، وبعد ذلك من الذى يشرف على الهضم؟ ... النفس!! ولذلك فهى التى تطلب فتشعر الإنسان بالجوع وتشعر الإنسان بالشبع!! فأين موضع الجوع؟ وأين موضع الشبع؟ وكيف يظهر عند الإنسان الإحساس بالجوع والشعور بالشبع؟

إنها أمور عجيبة وغريبة لا يدريها الإنسان، لكن الجهاز المسيطر على ذلك كله هو النفس، فهى التى تحرك هذا الكيان بأمر الرحمن ﷻ (٧، ٨:الشمس):

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾

فأنت – مثلاً – تنام ... ولكن أعضاءك الجسمانية لا تنام!! فمن الذى يهضم الطعام وأنت نائم؟!! ومن الذى يستقبل الأنفاس ويجعلها تخرج وأنت نائم؟!! ومن الذى يحرك القلب ونبضاته وأنت نائم؟!! ومن الذى يجعل الجسم يشعر فى أي موضع من مواضعه إذا لمس الجلد أي كائن ولو كان صغيراً كحشرة مثلاً!! فيتحرك الجسم فى الحال .. ويتصرف لإيقاف هذا الكائن؟!!

هي النَّفْسُ التي تهيمن على ذلك، فتهيمن على القوى الغذائية، وعلى القوى الحيوانية، وعلى القوى الشهوانية، وعلى القوى الغضبية، وعلى القوى السبعية، ولذلك انظر لنفسك عندما تأكل .. هل تأكل ما يعجب عينك؟ أو ما يتذوقه لسانك؟ أم تأكل ما يروق فى عين نفسك أولاً؟

من الذي يشتهي الطعام؟ .. إنها النفس، من الذي يتطلع إلى الأنام؟ ويُعجب بهذه ولا يَعجب بهذه .. هل هي العين؟ ... أبداً!! .. فإن العين نافذة تنظر منها النفس، والأذن نافذة تسمع منها النفس، واللسان يعبر عن مكنون ما في النفس.

قال الإمام أبو العزائم ﷺ :

والجِسْمُ آلاتٌ لها تسعى به وبَرِيدُهَا الحِسُّ الذي أرْدَاهَا

فالجسم كله آلات لها، ولذلك سيشهد عليها، فهل يجوز للفاعل أن يكون شاهداً؟!! .. فالفاعل هو المجرم، وتطبق عليه العدالة، لكن الجوارح ستكون شاهدة لأنها ما هي إلا آلات، والفاعل الآمر الحقيقي هو النفس، قال تعالى في (٢٤:النور):

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (٢١:فصلت)

إذاً فالجوارح كلها آلات والذي يحركها هي النفس، فالنفس هي مجموع القوى التي تحرك كل ما في الإنسان في هذا الكيان، لكن شكلها وهيئتها وجوهرها وكذلك حقيقتها – أين هي ؟.. هذا أمر لا يعلمه إلا من يقول للشيء كن فيكون.

وكل من تحدث في هذا فهو رجم بالغيب أو حديث نفس أو ظنون، وذلك لأنها أمور غيبية ليس للإنسان الحديث فيها أبداً بالكلية ... تظهر أفعالها لكن لا نستطيع أن نعرف جوهر ذاتها ولا حقيقة كنهها لأنها أمر الله جلَّ في علاه.

وقد يطلق عليها البعض تجاوزاً: القلب، والبعض الآخر يطلق عليها: النفس الناطقة .. وبعضهم يطلق عليها: الحقيقة الباطنة.

وهي كلها بمعنى واحد لأن قلب الشيء حقيقته، والقلب ليس مقصوداً به قطعة اللحم الموجودة فيك وفي الحيوان أيضاً، ولكنه يقصد به الحقيقة الربانية التي تهيمن على هذا الجسد وتسيِّره بأمر من يقول للشيء كن فيكون.

ولكن للتوضيح وإزالة اللبس نقول: أن النَّفْسَ ليست هي القلب النوراني الذي هو محل الإيمان ومحل تنزل جمالات الله وإلهامات الله وأنوار سيدنا رسول الله، فهذا شيء آخر، فهذا القلب هو الحقيقة الربانية التي جعلها الله في الإنسان من عوالمه العلوية من عالم الملكوت من معاني القرآن، وبيان النبي العدنان، والغيوب التي تحدث عنها ﷺ ولا تراها العينان، والذي لا يملك هذا القلب – كأهل الكفر يقول فيهم الرحمن (٣٧:ق):

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ ﴾

فهذا القلب النوراني الرباني الذي يقبل كلام الله لا يوجد إلا عند المؤمنين فقط، أما الكافرون فإن فيهم نفوساً وليس لهم قلوب، ولذلك عندما تتحدث معهم يقولون لا نؤمن بشيء إلا إذا أدركته الحواس، فيريد أن يرى الله والجنة والملائكة ويحادثهم؟ فلا يؤمنون إلا بالحواس، لأن الله غيَّب عنهم ما سواها، ولم يعطهم القابل النوراني الذي به يتلقى الإنسان هذه المعاني، ألا وهو القلب السليم الذي ذكره الله تعالى في قوله:

﴿ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾ (٨٩:الشعراء)

والإشارة هنا أن هؤلاء ليس لهم إلا ما في الصدور أما غيرهم فلهم قلوب.

ولكي تزدادوا فهماً عن النفس .. أسألكم سؤالاً: عندما تأتي المنيَّة للإنسان، من الذي يتوفى؟ من الذي يموت فيلقى الجسد حتفه من وراءه؟ .. من؟!! .. إنها النفس هي التي تموت، وليست الروح أو القلب النوراني، واقرأوا الآيات:

﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ﴾ (٥٧:العنكبوت)

﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾ (٩٣:الأنعام)

وقوله تعالى في الآية الأخرى – وإن كانت هذه الآية أكثر علوًّا (٤٢:الزمر):

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾

وذلك لأن الأنفس هنا جمع قِلة، وهي تشير إلى هؤلاء الأفراد الذي يتوفاهم الله بنفسه، وذلك لأن دعاءهم دائماً هو: ((واقبض أرواحنا بيُمْنَاك مع شدة الشوق إلى لقائك يا رحمن)) .. وهؤلاء هم الأنفس القِلَّة، أما الآخرون ففيهم يقول سبحانه:

﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ (١١:السجدة)

فكل واحد له مَلَكٌ موكل ليتوفى نفسه وليس عزرائيل وفقط، لأن عزرائيل في الحقيقة لا يذهب إلا لمخصوصين، أما خاصة المخصوصين فيتوفاهم رب العالمين ﷻ بذاته ... أما الروح فلا تموت ولا تفوت ولا تغرب عند الموت (٥٦:الدخان):

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾

وإلا ..كيف يشعر الإنسان إن كان مؤمناً بنعيم القبر .. أو إن كان غير مؤمن بعذاب القبر – لو كانت الروح هي مَنْ يموت عند مفارقة الإنسان لهذه الحياة الدنيا؟!!.

ومن أجمل وأكمل ما ذكر العارفون في تحليلاتهم الرائعة للنفس: ((**النَّفْسُ جوهرٌ مشرقٌ على البدن، فإن أشرق على ظاهر البدن وباطنه حصلت اليقظة! .. وإن أشرق على باطن البدن، لا على ظاهرة حصل النوم! .. وإن انقطع إشراقه بالكلية حصل الموت!!**))

هذه هي النفس باختصار شديد.

أنواع النفوس ووصفها

ونبدأ بشرح أنواعها وأوصافها إجمالاً ثم تفصيلاً، فنقول وبالله التوفيق:

بادئ ذي بدء، إن النفس المسؤولة عن هذا الجسد ليست نفساً واحدة، وإنما هي نفوس جعل منها سبحانه أنواعاً تعدَّدت بحسب تعدُّد احتياجات هذا الجسد الذي خلقه الله ليظهر فيه الإنسان على مسرح هذا الوجود.

وقد فطرها سبحانه على الهيئة التي تدفع صاحبها دفعاً حثيثاً ليحصل مقتضياتها وما تميل إليه بطبعها، وهي تدفعه لِمَا تريد لا تلتفت لغير ذلك، فكل نَفْسٍ منها خلقها الله في الإنسان إنما جعلها لمنفعته في ناحية من الوجود إذا استقامت على شرع الله، وقنعت بما يصلحها، مهتدية بسنة خير البرية فيما يصلح شأن جسد صاحبها في هذه الحياة الدنيوية، فإن تركها صاحبها لفطرتها ولم يجاهدها ويقيِّدها بعقال الشرع، أطلقت العنان لطبعها فغوت وأغوت، وتمادت وتلونت، واختلقت الأعذار، وتعدَّت الحدود، وخرقت ميزان أحسن تقويم الذي يحجزها عن جلب الضَّرر لهذا الجسد في الدنيا وعند لقاء الله في الآخرة، وهي تصوِّر لصاحبها أنها إنما تنفعه بنصحها، وتمتعه بفعلها، وأنها تعمل لصالحه ومنفعته، وهي في الحقيقة تسوقه بتعديها لحتفه وحتفها!!..

ولذلك وجب على المسلم في جميع أطواره ومقاماته جهادها؛ لتعود إلى رشدها وتلزم حدود الشرع الحنيف، فيتأتى نفعها ويمتنع ضررها، وتكف عن بسط جائر سلطانها على الجسد، ويصبح السلطان الحقيقي عليه لله ولرسوله، فتصير قائمة بتدبير شئونه على نسق الشرع فيصبح الإنسان نافعاً منتفعاً، متزناً مع الوجود مِنْ حوله، وصالحاً لتنزل الأنوار والعودة إلى أصل خلقته قبل نزوله لهذه الدار، ولذا نقول:

إن العارفين جعلوا للنَّفْسِ أمراً عاماً يستطيع الإنسان أن يرتكز عليه في تعامله معها، أو تزكيتها، أو جهادها، ألا وهو أن جهادها في مخالفتها، أي كلما تأمر الإنسان بأمر، يخالف هذا الأمر.

وجاهد النَّفْسَ والشَّيْطَانَ واعصِهِمَا وإن همـا مَحَّضَـاك النُّصْـحَ فاتَّهِمَـا

أي: وإن أعطتك أيضاً النصح فاتهمها فيه، لماذا ؟ لأنها لا تميل ولا تدعو ولا تنصح إلا إلى ما يوافق حظَّها وهواها، ولا ترضى بالقليل الذي فيه صلاحها شرعاً، ولذا لزم مخالفتها على الدوام، ولذلك كان مولانا الإمام أبو العزائم ﷺ دائماً يوقظ أرباب النفوس ويقول لهم:

فهيَّـا يـا مُريـدَ الوَصـلِ وَانهَـض وَدَعْ عَنـكَ التَّقَاعُـدَ والتَّـوَانِي

وأول النفوس التي نبدأ بها حديثنا هي: ((النَّفْسُ الجمادية))، وهي التي تدعو الإنسان إلى الراحة وإلى الدَّعة والخمول والجمود، وهي تعتبر من أخطر النفوس على أهل الطريق! لأنها تسبب للإنسان وقف الحال، توسوس له وتقول أنت على ما يرام! أنت الآن تصلي الفرائض وتحافظ على السنن والنوافل، فماذا يريد الله منك بعد هذا! وهي لا تترك السالك إذا ارتقى، ولكن تغير أسلوبها ولها في كل مقام حيلُ شتى وألاعيب عجيبة لتجمد الإنسان وتكفه عن بذل المزيد في طريق الحميد المجيد!!.

والنفس الثانية: هي النفس التي يتم بها تدبير الغذاء للجسم، وهي التي تجعلك تحسُّ بالجوع والشبع، وتقوم بترتيب النَّماء في الخلايا والأعضاء، والإحلال والإماتة لكل الخلايا الموجودة في جسم الإنسان .. فهذه تسمى بـ ((النَّفْسِ النباتية))، أو ((النفس المُغَذِّيَّة))، أو ((النفس الغذائيَّة)).

أما النفس التي تميل للشهوات – من نكاح أو منصب وجاه، أو مسكن ومركب، أو غيرها من الشهوات التي تسيطر على الإنسان لتعمير الدنيا وإنشاء المجتمعات –

فهذه نسميها في مجملها: ((النفس الشهوانية))، وهي تنقسم إلى قسمين: أو نَفْسَينِ يندرجان تحت لوائها؛ (نفس حيوانية) و (نفس إبليسية).

فالقسم الأول يخصُّ النفس الثالثة من أنواع النفوس، وهي ((النفس الحيوانية)) التي تختص بالشهوات الجسدية من منكح وملبس ومسكن ومركب، والقسم الثاني هو النفس الرابعة وهي التي تختص بالشهوات النفسانية من حُبِّ الظهور والعُلُوِّ والسيطرة، وتُدعى بـ ((النفس الإبليسية))، وهي رائدة الشهوات المعنوية.

أما النفس الخامسة فهي: ((النفس السبعية)) .. تظهر ساعة الغضب .. وتدفع صاحبها للقهر والتسلط والمدافعة والمنازعة والمجادلة، وهي تسمى النفس السبعية لأن صاحبها يتصرف تصرف السباع – أي: الحيوانات – عندما يغضب، فهو يرفس كالحمار، أو ينطح كالثور، أو يضرب باليدين كالأسد، أو يبصق كالثعبان، وكلها دائرة واحدة تسمى "دائرة الوحوش"، وهي من النفس السبعية.

أما النفس السادسة فهي: ((النفس الملكوتية))، التي تتشبه بالملائكة .. فهي تميل إلى الطاعة والاستقامة والهدى والتَّوادد، والتآلف والتآخي، والتعاون، وتسمى كل هذه بالنفس الملكوتية، وفيها يظهر الإنسان كالمَلَكِ ... وهي التي خلقها الله في الإنسان لتسود المحبة والعطف والرحمة، وليعم السلام والوئام، وليمكن الإنسان من إخضاع جسده لسلطان الروح، وليميل عند صلاح شأنه للأحوال العلية، وليمكنه عند ذلك من إخضاع النفوس الأخرى لسلطانها، فيستجيبوا جميعاً لحكمها بالتخفف من الدواعي والمتطلبات الدنية والرغبات الذاتية، لكي يتمكن الإنسان من بسط سلطان الروح فيحدث له الرقي والتخفف من الدنيا.

وإذا مَنَّ الله على المرء – بعد إخضاع نفسه للنفس الملكوتية – ينفخ فيه من روحه بنفسٍ – وهذه خصوصية – وتسمى هنا: ((النفس القدسية))، وهم عِبَادٌ مختارون وهي النفس السابعة.

إذاً فالمصيبة الكبرى .. فهي النفوس التي بداخلك: فأنا ليس معي نفس واحدة كما قلنا – ولكنها سبعة نفوس؛ نفسٌ جمادية، ونفسٌ نباتية، ونفسٌ حيوانية، ونفسٌ إبليسية، ونفس سَبْعية، ونفسٌ ملكوتية، ونفسٌ قدسية، وكل واحدة منها أوجدها الله لغرض، وخلق الله فيها نزعاتها ووسوستها وهواجسها وخواطرها، وأمراضها وآفاتها، كما سَنَّ لها من الشرع الشريف ما يصلحها وبه علاجها وتزكيتها .. والآن إلى التفصيل .

أولا: النفس الجمادية

وهي التي أشار الله تعالى إليها في كتابه الكريم في آيات كثيرة منها قوله تعالى:

﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ (٧:السجدة)

وقوله:

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ (١٤:الرحمن)

فبداية خلق جسم الإنسان من طين أو صلصال، وهذا كله على أطواره جماد، والجماد صفته الجمود في ذاته، فهو لا يتحرك ولا يتبدل إلا بدافع خارج عنه. ولذا خلق الله فيه هذه النفس التي تناسب منشأه الأصلي الذي خلق منه جسده.

فجعل الله النفس الجمادية في الإنسان لشدِّه إلى أصله، فتدفعه إلى الدَّعة والراحة، ثم الكسل والجمود، وهي لا توسوس للإنسان سافرة عن وجهها وإنما هي تقول له أنت قد تعبت والإنسان بعد كل مجهود يحتاج إلى راحة .. وهذا طبيعي؛ ثم تزين لك الراحة وفائدتها لتطيل فيها، وهي تماطل وتتحايل وتقول لك لِمَ العجلة، فالعجلة من الشيطان؟!. وأنت تصدق أنها تنصحك فتتبعها مرة وتدفعها مرة، وهي لا تَمِلُّ حتى توقعك مرة بعد أخرى في حبالها وشباكها، وتجعل استراحتك تمتد وتصير مُحِبًّا للكسل والوخم والخمول ويفوتك الخير الكثير.

وهكذا فإن السالك إذا ترك نفسه الجمادية لفطرتها، طبعته بصفة الجماد الذي لا يحيا ولا ينمو، فأصبح جامداً هامداً خامداً، فإذا أدام اتباعها وعمل بنصحها وأهمل جهادها وترك مخالفتها ابتلي بحب الراحة بلا داع! وبالكسل عند الحاجة للنشاط! وبكثرة النوم وحُبِّ الدَّعة والجلوس مع أهل الغفلة.

فالنفس الجمادية هي التي تريد أن تجمِّدني عن طاعة الله، وتجعلُني أتكاسل، وكلما أنهض تُثَبِّطُنِي وتُقعدني عن ذكر الله، أو عن طاعة الله، أو عن زيارة أخ في الله، أو عن أي عمل يقربني إلى حضرة الله، وإذا حاولت جهادها لا تستسلم وتكف؛ بل تدور وتلف وتأتي إليَّ بالأسباب التي أعفيها بها من المساءلة.

فتقول لي مثلاً: أن التصوف والطريق كان للقوم الذين ليس لهم عمل!!، كالصحابة .. كان لديهم الوقت وليس عندهم مشاكل مثلنا! فنقول لها: أيتها النفس الجامدة الخامدة!! هذه دعوى الجهلاء!! من قال أن الصحابة كان لديهم وقت فراغ!! هل كانوا لا يعملون؟! كلا!!.

بل كانوا في عمل دائب ومستمر، فقد كانوا لا يفرغون من العمل لحظة، فإما في الجهاد، فإذا رجعوا من الحرب في ميدان القتال فإلى الحرب في ميدان السعي على المعاش، أو الدعوة لله ونشر تعاليم الدين ، فهل مثل هؤلاء كان لديهم وقت فراغ؟!!.

إن سيدنا عيسى قال فيهم واصفاً أتباع النبي مُحَمَّد ﷺ: ((أتباعه رهبانٌ بالليل وسباع بالنهار))، وقد وضح ذلك الإمام أبو العزائم ﷺ فقال:

تراهم نهاراً كالسِّبَاع شـــــهامةً كما أَمرَ الرحمن في طلب البرِّ
وفي الليل رهبانٌ بذكر إلههم سكارى حيارى في شهودٍ وفي ذكرِ

لكن النفس الجمادية تثبطك عندما تقوم في الليل لتصلي، قائلة لك إن وراءك عمل في الصباح! وإذا قمت الليل لن تستطيع أن تتقن عملك في الصباح .. وأنت تسمع كلامها وتنسى .."أن الله إذا أقامك .. أعانك".

وخذ مثالاً .. سيدنا عمر كان لا ينام إلا نذراً يسيراً .. لماذا؟. كان يقول: ((إذا نمتُ نهاراً ضيَّعتُ رعيتي، وإذا نِمتُ ليلاً ضيَّعتُ نفسي)). قد تقول: وكيف يستطيع الحياة الذي يفعل مثل هذا؟!! الأمر سهل، فهذا رجلٌ اعتمد على الله؛ فإذا أخذ غفوة وهو جالس .. يقوم وكأنه قد نام يوماً أو أكثر! فلا يشكو من أرق، ولا يتقلب في السرير، ولا يحتاج إلى حبوب منومة أو مهدئة.

والإمام أبو حنيفة كان يعمل تاجراً في السوق، وكان كما تعلمون يصلي الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة. متى كان ينام؟! كان ينام غفوة بعد شروق الشمس، وغفوة بعد الرجوع من السوق، أما العصر فكان للتدريس، وبالليل في طاعة الله. وكل الأمر أن النَّفْسَ توقفنا عند الأسباب، وتضحك علينا وتنسينا:

﴿ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ (٢١٢:البقرة)

والصالحون لم يسيروا إلى الله إلا بهذه الكيفية.

ومن حيل النفس الجمادية أيضاً – لتُثْنِيكَ عن المنشط في الطاعة – إذا كان الجو بارداً، تقول لك انتظر! الماء بارد والجو بارد، فتقول لها: ولكن السخان موجود والماء الساخن موجود! فتقول لك: ولكن الجو خارج البيت بارد! وقد تصاب بالبرد إذا توضأت بالماء الساخن وخرجت! والله أمرك أن تحافظ على نفسك ... يا سبحان الله!! .. تأتيها من هنا فتأتيك من هناك، وما من عذر تدفعه إلا وساقت لك غيره وغيره!! فماذا تريد النفس؟. تريد أن تُجمدني عن طاعة الله! .. هذه هي النفس الجمادية.

ثانياً: النَّفْسُ النَّبَاتِيَّةُ

أما النفس النباتية فهي القوى الغذائية الموجودة في جسم الإنسان من معدة وأمعاء والكبد وغيرها: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴾ (١٧:نوح)

وهؤلاء يعملون بأمر الله، هل تستطيع أن تقول للمعدة تغدِّى وانتظري ساعة ثم اهضمي الأكل؟ أو اهضمي هذا واتركي ذاك؟ لا! ليس لك دخل بهذا الأمر! .. لماذا؟ لأنها تتلقى أوامرها من ربِّها، وتقوم بالعمل على ما يرام، حتى تُوصِّل لكل عضو غذاءه الخاص به.. فغذاء العين غير غذاء اللسان، غير غذاء الشم، غير غذاء الأذن!!

وهكذا! فلو ذهب غذاء العين للأذن لن تبصر العين، ولن تسمع الأذن، لأن لكل حقيقة غذاؤها المخصوص، ويأخذ الجسم ما يحتاجه بمقنَّنات إلهية أخبر الله بها خير البرية ﷺ، ما الذي يكفي يا رسول الله هذا الجهاز؟ .. قال ﷺ: (مَا مَلأَ آدمِيٌ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنِهِ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكْلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ)[٢].

فمتى أُدخِلُ هذا الثلث؟ .. عندما تجوع، لقوله ﷺ: (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع)[٣].

لماذا؟.. لأن المصنع يأخذ احتياجاتنا فقط، والباقي يحوله إلى جهاز الإخراج ليخرجه، لكن الذي يُتعب الجسم .. الزيادة .. فهي التي تزيد في أحماله وأعباءه وتُعَرضه للأمراض، لأنك شغلته كثيراً بغير فائدة أو نفع!!

إذا لا نأكل!! .. لا .. بل نجعل الأكل مثل الدواء، فنأخذ منه ما يسدُّ داء الجوع، ونسير فيه على هدي الشرع لا على راحة وهوى النفس، فلا يكون همِّي كلُّه ماذا آكل؟ وماذا أشرب؟ ومن أين أحضر هذا الصنف؟ وكيف أصنع في هذا الصنف؟ لأن الشهوات الزائدة في المأكل والمشرب من رغبات النفس النباتية .. وإنما ميزاني: (بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكْلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ) ، لأن القوة ليست من الأكل والشرب ولكنها من القويِّ ﷻ، وهذه كلها أسباب.

---

[٢] رواه البخارى عن ابن عمر رضي الله عنهما.
[٣] رواه الحارث بن أبي أسامة والزار والطبراني وابن خزيمة وابن شيبة عن بريدة.

فالنفس النباتية تشغل الإنسان بالشهوات الغذائية والشُّربية، وتجره إلى المحرمات، إلى أن يأكل ما نهى عنه الله ويشرب ما حرَّمه الله، فيقع في غضب الله ﷻ، فإن استطاع أن يكبح جماحها عن المحرمات الواضحة إلتوت ودفعته للاستزادة من هذا، والتنويع من ذاك، حتى يسرف في طعامه وشرابه ويصاب بالبدانة أو التخمة، وأقلها أن تهجم عليه بعض أمراض البدن نتيجة ذلك! وهو لا يرعوي وهي لا تنفك تضحك عليه وتقول له: هل تُحرِّم ما أحل الله لك!!.

ثالثاً: النفس الحيوانية

وهي النفس التي يقول الله تعالى فيمن ملكته (١٢:مُحَمَّد):

﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾

وهي النفس التي تدفع الإنسان للميل للغرائز الحيوانية والشهوانية التي بها التناسل، فتدفعه للميل إلى الجنس الآخر ليكون التوالد ...وليكون الميل إلى كل ما من شأنه أن يحقق له هذا الغرض؛ من ملبس ومسكن ومركب ... فيندفع لتعمير الأرض ... فيزرع ويستخرج، ويبني ويصنع، ويأكل ويشرب، ويلبس ويسكن، ويتزوج وينجب ... ويكوِن الأسر فالمجتمعات والدول!!!.

فهذه النفس هي التي تدفعه لعمارة الدنيا عَدَدَاً وعتاداً، وإذا أسلم الإنسان قياده لهذه النفس الحيوانية وقع في المحرمات، واستسلم للشهوات، وانتشرت المفسدات، وقادته إلى الزنا واللواط والمنكرات، والإسراف والتبذير في الملبس والمسكن والمركب، وأصبح المجتمع أحط من مجتمعات الحيوانات، قال تعالى في شأنهم:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (١٧٩:الأعراف)

فإذا استداموا في غيهم ولم يعودوا إلى رشدهم، وطبعتهم النفس الشهوانية بطبعها الدني واستمرأوا ذلك؛ قادتهم إلى حتفهم بالنهاية كما ذكرت الآيات الكريمة التي استهللنا بها شرح هذه النفس الحيوانية.

رابعاً: النفس الإبليسية

النفس الإبليسية هي التي تميل إلى إظهار الفساد في الأرض بالغِيبة والنميمة، والفتن والشحناء، والمكر والدهاء، والحقد والحسد، وهذه هي بضاعة إبليس!! ويقول الله تعالى واصفاً مَنْ تغلبت عليه هذه النفس:

﴿ شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴾

(١١٢:الأنعام)

كما أنها النفس التي تدعو الإنسان في هذه المجتمعات التي أنشأها وعمَّرها بالتناسل، وملأها بالمصالح والأشغال، تدعوه في وسط الناس إلى حُبِّ العلو والظهور والرغبة في القيادة والجاه والرياسة والسيطرة.

فهي النفس التي خلقها الله في الإنسان أصلاً ليكون ذو مكر ودهاء وحيلة للتعامل مع كافة تطورات وتقلبات الحياة، وتجعل لديه الرغبة في العلو والتميز ليقوي بعضه على قيادة بعض، وليوجد في المجتمع من يسوسه ويقوم على شأن أفراده، وحل مشكلاته .. بداية من الأسرة وحتى الدول والأمم.

خامساً: النفس السبعية

أما النفس السبعية: فهي النفس الغضبية، وهي قوة الغضب الموجودة في الإنسان، فوقت أن يغضب الإنسان تظهر عليه صورة السباع، ولذا يقول الله تعالى في شأن من سيطرت عليه قوى هذه النفس (٥٠، ٥١:المدثر):

﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾

وعندها فإنه يقلد هذه الحيوانات فيضرب بيده مثل الأسد! أو ينطح برأسه مثل الخروف أو الثور! أو يركل بقدمه مثل الحمار! أو يبصق مثل الثعبان! فيكون مثل الناس الذين يربون أنفسهم في هذه الحظيرة، أو في المجتمعات السَّبعية.

أما المؤمن فغضبه بميزان وضعه النبي العدنان!! متى يغضب؟. ولِمَ يغضب؟ قال هند بن أبي هالة ﷺ في وصفه ﷺ : (وَلاَ تُغْضِبُهُ الدُنْيَا وَلَا مَا كَانَ لَهَا، فَإِذَا تُعُوطِيَ الْحَقُّ لَمْ يَعْرِفُهُ أَحَدٌ، وَلَمْ يَقُمْ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ حَتَى يَنْتَصِرَ لَهُ، لَا يَغْضَبْ لِنَفْسِهِ وَلَا يَنْتَصِرُ لَهَا)[٤].

فالكفار يؤذونه ويحاربونه ويُسقطون أسنانه، فيسألوه أن يدعو عليهم فيقول: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[٥].

وقد كان يتحمّل الأذى، ولا يظهر عليه! .. يقولون شاعرٌ، فلا يرد عليهم، فيرد الله عنه.

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ (٤١:الحاقة)

[٤] جامع المسانيد والمراسيل، عن هند بن أبي هالة ورواه الترمذى فى الشمائل وغيرهم كثير.
[٥] رواه ابن حبان والطبراني والبيهقي عن سهل بن سعد ﷺ.

فيقولون مجنونٌ، فلا يرد أيضاً، فيرد الله ﷻ عنه قائلاً:

﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ (٢٢:التكوير)

وكلما يتهمونه بشيء لا يرد ﷺ عليهم، فيرد الله ﷻ عنه، وفي هذا يقول الله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ (٣٨:الحج)

والمؤمنون متى يدافع عنهم الله ؟!. هذا إذا كانوا على مثل هذا الحال الذي كان عليه رسول الله ﷺ. فإذا ظهر شيء يغضب الله ، أو ينتهك فيه شرع الله، كان ﷺ لا يقوم لغضبه شيء لأنه يغضب لله وليس لأحد سواه. وهكذا كان أصحابه جميعاً ..

ومنهم على سبيل المثال سيدنا علي ﷺ الذي قاتل الرجل بشراسة حتى إذا تمكن منه؛ بصق الرجل في وجهه قبل أن يجهز عليه فتركه سيدنا عليُ وقام! قال الرجل مندهشاً: لِمَ .. وقد تمكنت مني؟!، قال: كنت أقاتلك لله، أما وقد بصقت في وجهي؛ فإني خفت أن أقتلك انتقاماً لنفسي وليس لله!!.

وليس كما نفعل نحن الآن، فأنا أغضب من زوجتي وأقيم الدنيا إذا تساهلت في حقي بعض الشيء، أما إذا تكاسلت في حق الله لا أكلمها ولا أعاتبها .. وأيضا أفرح بابني إذا طلع الأول في الامتحان، وأقيم الزينات والأفراح وأريد الناس كلها تبارك له بالنجاح؛ من أجل أنه نجح في الامتحان!! وجائز هو راسب عند الديان: لا يصلي، ولا يعرف أوامر الله، وأنا غير مشغول بهذا الأمر!! وهذه هي المصيبة التي يقع فيها كثير من عباد الله. إذا يجب ألا أغضب إلا إذا انتهكت محارم الله ﷻ.

فقوى النفس السبعية تظهر عند المنازعات والاحتكاكات بين أفراد المجتمع والدول، وهي قد خلقها الله أصلاً لتبعث في الإنسان القوة والغضب التي بها يدافع عن

نفسه وأهله ووطنه عند مقتضى ذلك، ويتولد منها القوة والشجاعة والحماسة وكل المعاني المشابهة التي لا تصلح حياة مجتمع بدونها، ولا يستقيم أمنه في غيابها.

وهاتان النفسان الأخيرتان – الإبليسية والسبعية؛ هما اللتان إن تعدتا حدود الشرع في المجتمع فبدلاً من أن ينعم المجتمع بالأمن والقوة والشجاعة والقيادة الرشيدة والقضاء العادل، فهما اللتان يذوق المجتمع بسببهما القهر والاستبداد والظلم والتسلط والانتقام والمكر والخداع والنصب والاحتيال وينتشر الإجرام والحوادث؛ وذلك عندما تتسلط هاتان النفسان على الأفراد وأهل الحل والعقد فلا يلتزمون الشريعة، ويسير الأفراد على هوى نفوسهم السبعية والإبليسية والشيطانية!!.

سادساً: النفس الملكوتية

ولكي يدخل الإنسان على النفس الملكوتية لا بد أن يكون كما قال الله تعالى في محكم الكتاب (٨٩:الشعراء):

﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

متى يكون القلب سليماً ؟ ....

إذا سلم من الإصابة بهذه الآفات السابق ذكرها كلها، ولا يتم ذلك؛ إلا أذا أَعْطيتَ مقاليد القيادة في مملكتك للنفس الملكوتية الموجودة بداخلك، فهي التي تحثُّك على طاعة الله، وعلى الحياء من الوقوع في الذنب خوفاً من غضب الله وانتقامه ﷻ وأول علاماتها الحياء، ولذا قال ﷺ: (الحياء من الإيمان)[٦]. وقال ﷺ أيضاً: (إِنَّ الْحَيَاءَ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ)[٧].

[٦] رواه البخارى عن ابن عمر رضي الله عنهما

[٧] الحسن ابن سفيان وأبو نعيم عن يسير بن جابر ﷺ ، جامع المسانيد والمراسيل

فالنفس الملكوتية تحث الإنسان على عمل البر والخير والطاعة والمعروف، والمَلَكُ والإنسان فيها، كما قال الرحمن (٦:التحريم):

﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

ولذلك ربنا سبحانه سمَّى الملائكة: " عباد الرحمن" في قوله ﷻ (١٩:الزخرف):

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ ﴾

وقال تعالى (٦٣:الفرقان):

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾

فالملائكة "عباد الرحمن"، والمطيعون لله أيضاً سمَّاهم الله: "عباد الرحمن"، فعباد الرحمن ينزلون على عباد الرحمن في قوله:

﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾

من هم يا رب؟

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ (٣٠:فصلت)

حكَّموا النفس الملكوتية في تسيير دفة المملكة الإنسانية، فأصبحت هي التي تُسيِّرُها، وهي التي تمشِّيها، وتتحكم فيها في ذهابها وإيابها.

إشارة لطيفة: الخاطر الأول

وهنا إشارة لطيفة ومفيدة قالها الصالحون لمن يسعون في تزكية نفوسهم، ولمن يعمل على تنفيذ مرادات النفس الملكية وإلهاماتها، يقول لك الصالحون عليك بالخاطر الأول!

فإن النفس الملكية تأمرك بأمر! فإذا انتظرت بعض الوقت لتنفيذه، تأتي النفوس الأخرى لتنتقص من هذا الأمر؟.

ومثال ذلك:

الإمام الجنيد ﷺ، وقد كان أحد تلاميذه يحجُّ، وكانوا مؤدبين .. وعندما رجع من الحَجّ؛ قبل أن يذهب إلى بيته ذهب إلى بيت الأستاذ حتى لا يكلفه بمشقة الذهاب إليه، وبعد عودته إلى منزله إذا بالباب يدق! فقال: مَنْ بالباب؟ قال: الجنيد. فقال في نفسه: إنه شيخي، لأني لا أعرف أحداً في بغداد بهذا الاسم غير شيخي. ثم تردَّد وقال في نفسه: أنا قادم من عنده فَلِمَ يأتيني الآن؟. فلم يفتح الباب؛ فدق الباب ثانية ففتح التلميذ الباب؛ فإذا بشيخه الجنيد أمامه!، فقال الأستاذ: ما منعك أن تتفتح الباب من الخاطر الأول؟. قال: يا سيدي ! ما كنت أتوقع أن تأتيني؛ لأني أتيتك، فقال الأستاذ: هذا فضلك (مجيئك إليَّ)، وهذا حقك (قدومي إليك).

وهكذا الأمر .. فالنفس الملكية تقول أن أريد أن أعط فلاناً خمسة جنيهات لأنه محتاج أو فقير، فإذا توانيت لحظة في التنفيذ، تأتي النفوس الأخرى كما قال تعالى (١٢٨:النساء):

﴿ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾

فتقول أعطه ثلاثة، ثم أعطه اثنان، ثم تقول لك: إنه ليس محتاجاً!! لا تعطه شيئاً!! فإذا بالخير وقد ذهب مني!!! ولذلك فعليك بالخاطر الأول، فعندما تأمرك نفسك بعمل من أعمال الخير سارع إلى عمله، ولا تتوانى لحظة.

فإذا استيقظت في الليل لتقوم للتهجد، تقول لك النفس: باقٍ على الفجر ساعة وهذا وقت طويل، ويكفيك صلاة ركعتين، فنم وعندما يتبقى على الفجر ثلث ساعة تقوم!. فتنام ولا تقوم إلا بعد أن تسمع خارجين من المسجد بعد الصلاة!؛ ما سرُّ هذا؟. أنك لم تسمع كلام النفس الملكية التي أمرتك بالخير!.، ولم تنفذ الخاطر الأول!!.

وكذلك عندما يعطيك الله مالاً من أجل الحَجِّ! تقول النفس الشح: العيال أولى! والحقيقة أني لا أعرف هذه الفتاوى من أين أوجدوها؟. مع أن العلماء أجمعوا أن الحج فريضة، أما زواج الأولاد فليس فريضة عليَّ، وإنما تربيتهم هي التي فرضت عليَّ. عندي حج، وعندى ولد سيتزوج .. ماذا أفعل؟ أبدأ بالحج لأنه فرض فرضه الله عليَّ، وهو دَينٌ سيحاسبني الله ﷻ عليه، بينما أنا غير مكلَّفٌ بتزويج ابني!.!. ولكني مكلَّفٌ بماذا؟. بالتربية فقط، وإن كان الأمر يختلف بالنسبة للبنت المؤهلة للزواج، فالواجب البدء بتجهيزها.

ولذا تخدعه نفسه فيقول: أنتظر إلى أن أنتهي من زواج الأولاد، ثم أحج!. ولكن ما الذي يحدث؟. أنه عندما ينتهي من زواج الأولاد؛ إما لا يجد عنده مالاً! أو لا يجد صحة! فيقولون له: سقط عنك الحج لأنه لم يعد لديك صحة !! وهذا خطأ أوقعته فيه النفس يا إخواني .. فطالما أن الله ﷻ هيَّأ لي الأسباب: لا أتوانى عن تنفيذ أمر الوهاب ﷻ لحظة، ولا طرفة عين ولا أقل من ذلك.

فالنفس الملكوتية.. بها العطية.. فبعد أن تزكيها يأتي لك الفتح، وعلى يديها تأتي لك الفراسة: (**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**)[٨]. ويجئ لك الإلهام، ثم يجئ لك النبي ﷺ، ويفتح لك باب العطاء، لأنه: "مكتوبٌ على حضرة القدوس لا ينالها أصحاب النفوس".

وحتى النفس الملكية لها آفات!! فآفات النفس الملكوتية أن النفوس الأخرى، ربما تضحك عليَّ فتوصل للنفس الملكية وشاية: "أني أنا الذي أعمل هذا وذاك من أعمال الخير والبر"، وهذه مصيبة في طريق الله ﷻ !!، لأني لا أرى توفيق الله، ولا معونة الله، ولا فضل الله، ولا إكرام الله ﷻ لي في هذه الأعمال.

[٨] رواه الطبراني عن أبي أمامة ﷺ

ولذلك على السالك أن يستمر في الجهاد، إلى أن يرى فضل الله عليه وفيه، فيرى أنه لا يتحرك حركة، ولا يسكن سكنة، إلا بتوفيق من الله، وبمعونة من الله، وبإذن من الله ﷻ له، فمن ينظر بيقين في أعماله، يشاهد فيها فيلماً تليفزيونياً؛ يرى فيه فضل الله وتوفيق الله ومعونة الله.

وفي هذه الحالة ينسى حظوظه؛ لأنه يرى أن أكبر لذة يتمتع بها هي ذكرُ الله، لأنه ليس عنده لذة أكل اللحم، ولا الجاتوهات!. لأن اللذة العظمى عنده في ذكر الله ﷻ، والمنة الكبرى لديه أن يتعطف المصطفى ﷺ عليه، ويوقفه بين يديه، فهذه المنة، لا تساويها كنوز الدنيا كلها من أولها إلى آخرها.

وأهل النفوس الملكية هم عباد مختارون ...

فالحق يمنُّ عليهم ببسط سلطان النفس الملكية حتى يشاهد الواحد منهم مشاهد ملكوتية؛ فيرى ملكوت الله[٩]، ويرى ملكوت الإنسان وما فيه من غيب الرحمن، يرى ملكوت الصدور وما فيه من خواطر سببها النور، ويرى ملكوت القلوب وما فيه من خواطر يجريها علام الغيوب، ويرى ملكوت السموات وما فيه من عوالم الملائكة وعوالم الجنَّات.

ولكن ليس لأصحاب النفس الملكية إطلاعٌ على الحضرة القدسية، وعند سدرة المنتهى يقول: ها هنا انتهى مقامي!. ويظل في هذا الجهاد، حتى يتفضل عليه الكريم الجواد؛ فيفنيه عن نفسه وعن حسِّه، ويتفضل عليه الله ﷻ بنفخة من روح قدسه ... ويعطيه الله ﷻ النَّفْسَ القُدُسية.

[٩] المُلْكُ: هو كل ما يُرى بعين الحِسّ ... والملكوت: هو كل ما غَابَ عن العين.

سابعاً: النفس القدسيَّة

وهي التي قال ربنا فيها (١٥:غافر):

﴿ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾

وصاحب النفس القدسية – التي هي من روح القدس ... هذا هو الذي يشاهد المجالي الذاتية، وعوالم العزَّة، وعوالم الجبروت، وعوالم اللاهوت، وعوالم النعموت، وعوالم لا يعلمها إلا الحيُّ الذي لا يموت .. وهذه عوالم القدس الأعلى، التي هي لأهل النفوس القدسية.

والنفس القدسية هي النفس المحفوظة عن المعاصي ... وهي النفس التي إن وهبها الله تعالى لعبده يتعهده بحفظه، فكما تعهَّد أنبياءه ﷺ بعصمته، يتعهَّد أولياءه بحفظه وكلاءته وصيانته، فحتى لو خطرت المعصية على باله ـ وهذا لا يحدث ـ فإن الله ﷻ يمنع عنه الدواعي ... فلا يجد الأسباب التي تعينه على فعلها، بل يجد الأسباب التي تردُّه عن الاقتراب منها، قال ﷺ: (إِنَّ مِنَ العِصْمَةِ أَن لاَ تَجِد)[١٠].

وليس المعنى فقط كما يظن البعض ألا تجد ما تستعين به على المعصية من مال أو رفقة أو صحة، ولكن من المعاني العلية في الحديث ألا تجد لك في نفسك داعياً يدعوك إلى المعصية، ولا دافعاً يدفعك إليها.

فهذه هي أنواع النفوس ووصفها.

[١٠] الدرر المنتشرة، للجلال السيوطي، رواه الإمام أحمد فى زوائد الزهد عن عون بن عبد الله.

الفصل الثاني

أساس جهاد النفس

- الدواء والطبيب النفسي
- الأسس الأربعة

✓ الأساس الأول: المطعم الحلال
✓ الأساس الثاني: تحصيل العلم الشرعي اللازم والعمل به
✓ الأساس الثالث: إخلاص العمل لله
✓ الأساس الرابع: المرشد العالم العامل

- نفسك هي الطريق إلى الله

قال ﷺ: ﴿لَيْسَ عَدُوُّكَ الَّذِي إِذا قَتَلَكَ أَدْخَلَكَ الْجَنَّة وَإِذَا قَتَلْتَهُ كَانَ لَكَ نُوراً، وَلَكِنْ عَدُوُّكَ نَفْسُكَ التي بَيْنَ جَنْبَيْكَ﴾

(الديلمي عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه)

الفصل الثاني

أساس جهاد النفس

موضوع جهاد النفس، ذو أهمية بالغة لكل سالك، ولكل واصل، ولكل عارف، ولكل متمكن، وإن الصالحين والعارفين أفنوا أعمارهم في تحليل خلجات النفس، وبيان أطوارها، وتوضيح خفايا ما توسوس به في الصدور، وما تفعله في قلوب المتقين من خواطر إلهامية، ومن أحوال ربانية. وقد جعل العارفون مراقي السالكين بحسب مراتب جهادهم للنفس، وهذا أمر سنعود إليه بالتفصيل لاحقاً ...

الدواء والطبيب النفسي

قرر الصالحون أنه من أراد جهاد نفسه؛ فلا بد أن يكون ذلك على أساس أدوية من كتاب الله، وأشفية من سُنَّة سيدنا ومولانا رسول الله، وعلى يد حكيم رباني، وطبيب نفسي روحاني، أُذِن بذلك بإذن صريح من سيدنا رسول الله ﷺ ...

ولذلك نقرر بدءً ذي بدء: أن كل مَنْ يقرر علاجاً للنفس يخالف شرع الله، فهذا أمر شيطاني، أو أمر نفساني، يخالف به المولى جلَّ وعلا!!

إذن أول ما قرره العارفون في جهاد النفس: أن جهاد النفس لا بد أن يكون بأدوية من كتاب الله، وأشفية من سنة سيدنا ومولانا رسول الله، استنبطها عارف مأذون بإذن صريح من سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، وغير هذا الكلام لا نرضاه.

وكل من يقرر جهاداً للنفس على غير الشرع الشريف، وعلى غير الهدي المحمدي الحنيف، فهذا لهوى في نفسه، أو ضلالٍ مستكنٍ في طبعه، أو لعمى بحظِّه عن طريق شرع ربه ﷻ، ولذلك قال ربي سبحانه (١٧:الكهف):

﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾

أي: أنه أخذ طريق الضلال، وسبب الضلال: أنه لم يجد ولياً مرشداً يأخذ بيده.

فكل من يأمر مريداً أو سالكاً بأمر مخالف للشرع ... فعليه أن يتوقف ويراجعه ولو رأى على يديه صريح الكرامات!!، ولو سمع منه خاصة الإلهامات!! ويقول له كما قال الخليل: أخبرني بحقيقة الأمر وجلية الأمر ليطمئن قلبي .. فلا يفعل الإنسان السالك إلا ما يطمئن إليه قلبه.

ولعلكم تذكرون جميعاً الحديث الشريف الذي يقول فيه سيدنا رسول الله ﷺ لسيدنا واصبة ﷺ: {اِسْتَفْتِ نَفْسَكَ، قَالَهَا ثَلَاثاً : الْبِرُ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَتَرَدَّدَ فِي صَدْرِكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتُوكَ}[11].

وهو حديث واضح وصريح، فإن كان إمامي ومرشدي محفوظاً فأنا ما زلت لم أدخل دائرة الحفظ، ولذلك أطالبه بأن يوضّح لي حتى أُحفظ من الهواجس والشكوك والظنون وغيرها، لأدخل على حضرة الله ورسوله سليم القلب:

﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٨٩:الشعراء)

وفي ذلك يوضح مولانا الإمام أبو العزائم ﷺ، أدب جلوس الرجل مع المرأة – ولو كان شيخاً هماماً والملائكة رهن إشارته!! – يقول: قد قال حبيبي ﷺ قولاً صحيحاً: {وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلَا يَخْلُوَنَّ بامْرَأَةٍ لَيْسَ مَعَها ذو محرمٍ مِنْها، فإنَّ ثالِثَهُما الشَّيْطَان}[12].

أي: في خلوة ــ والخلوة هي أي مكان مغلق عليهما، فلو جلسا في مكان مفتوح فليس ذلك بخلوة .. إلى أن يقول ﷺ: ((لو كان الرجل واثقاً من نفسه، مطمئناً إلى

١١ رواه أحمد عن واصبة رضى الله عنه، جامع المسانيد والمراسيل

[12] عن جابر بن عبد الله ﷺ، فى مسند الإمام احمد

حفظ ربه ﷻ له، فهل هو واثق من التي تجلس معه؟ ألا تسرح بها الخواطر؟.. أو تذهب بها الظنون؟ .. أي نفترض أنه واثق من نفسه!! لكن هل هو واثق بمن يجالسها؟!! إذن السلامة في اتباع الشرع:

((حافظ على السُنَّة، ولو بُشَّرتَ بالجنَّة))

لِسُـنَّتِهِ فَـاحفَظْ وَكُـنْ مُتَأَدِّبـاً وَحَاذِرْ فَحِصْنُ الشَّرْعِ بَابُ السَّلامَةِ

فكلنا نريد السلامة، والسلامة هي الطريق الذي ليس بعده ندامة، فلا تعود مرة أخرى تعيش في ندم داخلي أو حديث باطني! .. لِمَ فعلت كذا أو كذا؟ إذن يجب الاطمئنان من البداية، فالبِرُّ ما اطمأن إليه القلب، وإن أفتوك! وإن أفتوك! وإن أفتوك!، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس. ولذا نعيد ونكرر ونؤكد ونقول: أن أول مبدأ قضاه العارفون، ونبه عليه الصالحون، وحرصوا عليه في جهاد النفوس:

- أن تكون وسائل الجهاد من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ.
- وتكون الكيفية والهيئة والأدوية والأشفية التي يتناولها السالك ليجاهد بها نفسه، موصوفة على يد حكيم رباني. ما صفته؟ ...

هو حكيم أو طبيب مجرب ذو خبرة ودراية، اصطفاه الله، وانتقاه الله، ورقاه وأدناه سيدنا ومولانا رسول الله، وأذن له سيدنا رسول الله إذناً صريحاً أن يعالج الناس على بصيرة من الله .. قال الله تعالى (١٠٨:يوسف):

﴿ قُل هَـٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾

تِلْكَ الرِّيَاضَةُ يَا مِسْكِينُ غَايَتُهَا ذُلٌ ومسكنةٌ إنْ صَحَّ أَنْتَ وَلِي

وجهاد النفس هو الجهاد الأعظم كما ورد بالحديث الشريف، ولكي يخوض الإنسان هذا المضمار، فلا بد له من عُدة وعتاد حتى يسلك هذا السبيل عن بيِّنة، وإلا قطع السنين والأعوام وهو لا يتحرك ولا يرقى في السير والسلوك.

لا بد له من وضع الأساس أولاً ... وهذا الأساس مكون من أربعة أعمدة: أولها المطعم الحلال، وثانيها العلم والعمل بما لا بد منه من الشرع الشريف، وثالثها هو تحري الإخلاص لله في العمل، ورابعها هو المرشد ... وهذا الأخير هو الباب الذي يدخل منه على ميدان الجهاد على بيِّنة.

فإذا دخل ميدان الجهاد على يد المرشد العامل علَّمه المرشد ثلاثة أشياء لازمة لهذا الميدان .. أولها: ماذا يجاهد؟ .. وثانيها: كيف يجاهد؟ .. وثالثها: لماذا يجاهد نفسه؟ وما الهدف من هذه الحرب التي يخوضها؟.

وكل هذا سنتناوله في الحديث .. بتفصيل غير مُمِلٍّ، وإيجاز غير مخل ... فنقول وبالله التوفيق ومنه العون والسداد:

الأسس الأربعة

الأساس الأول: المطعم الحلال

وهو الأساس الأول، فإذا أهمل جانب المطعم الحلال فكل أعمال حابطة وهابطة وباطلة. إذاً فالأساس قبل جميع المجاهدات – الأساس الأول؛ لا بد أن يتحرَّى أكل الطيبات. لماذا؟ بَيَّنَ الحبيب ﷺ ذلك وأقسم!! ..

على ماذا تقسم يا رسول الله؟!! ..

{إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الْحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْماً، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنَ السُّحْتِ وَالرِّبَا فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ}[١٣].

فأي جهاد ينفعه!! وكيف يسير في طريق القوم خطوة وهو أصلاً لا تقبل منه صلاة ولا صيام ولا حج، وكل أعماله مردودة عليه؟!! ... بل إن الله تعالى يقول له: (لا لَبَّيْكَ وَلا سَعْدَيْكَ، وَحَجُّكَ مَرْدُودٌ عَلَيْكَ)[١٤] ... فلا بد من المطعم الحلال ...

وهذا هو الأساس الأول. ولنا أسوة – كل الأسوة – في هذا الصحابي الذي ذهب لرسول الله ﷺ ليعليه ويرقيه بدعوة نبوية، ليكون بسرِّها مستجاب الدعوة!. هل دعا له ﷺ ؟ .. لا .. بل دعاه إلى جهاد نفسه!. ووصف له روشتة نبوية تبلِّغه أمله.

ما روشتة الحبيب له؟ .. قال له ﷺ – واضعاً أساس الجهاد، وراسماً سبيل الرشاد: {يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ}[١٥].

فالأساس الأول لجهاد النفس هو: إطابة المطعم وتحري الحلال فيه، وهذا يقرب العبد من مولاه، لأن الله أمر بذلك المرسلين وأمر بذلك المؤمنين أجمعين ... انظر إلى تكليف الله للمرسلين!! .. ماذا قال تعالى لهم (٥١:المؤمنون):

﴿ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ ﴾

بل ويقول ﷺ – بعد أن بين أثر اللقمة الحرام في بطن العبد – أنه حتى الثوب على جسده يمنع قبول العمل إن دخل فيه درهم حرام:

[١٣] المعجم الأوسط للطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما

[١٤] أمالي ابن مردويه عن عمر ﷺ قال: قال ﷺ: (من حج بمال حرام فقال: لبيك اللهم لبيك، قال الله له ...) (الحديث).

[١٥] المعجم الأوسط للطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما

{مَنِ اشْتَرَى ثَوْبًا بِعَشرَةِ دَرَاهِمَ وَفِي ثَوْبِه دِرْهَمٌ مِنْ حَرَامٍ لا يَقْبَلُ اللهُ لَهُ صَلاةٌ مَادَامَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ}[١٦].

وهذا نأخذ منه أن المطعم الحلال لا يعني المأكل فقط! وإنما هو المطعم والمشرب، والملبس والمسكن والمركب، وكل نفقة ينفقها العبد لا بد أن تكون من حلال زلال وينفقها بلا سرف ولا تقتير ولا مخيلة.

ومن هذا الأساس فلا يغشُّ ولا يخدع، ولا يبيع الوهم والخيال أو الدجل والاحتيال، ولا يطفف المكيال والميزان، ولا يهضم حق وارث، ولا يأكل مال اليتيم بالباطل، ولا يغش المؤمنين في زراعته بالهرمونات، وكذا المواشي والطيور أو المبيدات الممنوعة! والله تعالى فرق بين الحق والباطل فقال ﷻ (١٠٠:المائدة):

﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾

فهذا الخبيث الكثير الذي يعجب النفس المريضة، يحذر منه المجاهد لنفسه في المقام الأول لأنه ينقض الأعمال ويجعلها داخلة في قول الله ﷻ (٢٣:الفرقان):

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾

فكيف يبني بنيان جهاده ويسير في طريق تزكيته لنفسه وقد حكم على البنيان بالخراب من قبل أن يبني؟!! ومنى نفسه بالفشل من قبل أن يبدأ لقوله ﷺ: {اتَّقُوا الْحَرَامَ فِي الْبُنْيَانِ فَإِنَّهُ أَسَاسُ الْخَرَابِ}[١٧].

[١٦] شعب الإيمان للبيهقى ومسند أحمد بن حنبل ومسند عبد حميد عن ابن عمر رضي الله عنهما.
[١٧] مسند الشهاب القضاعي ، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

فهذا هو الأساس والعمود الأول في بناء جهاد النفس وتزكيتها ... وهو تحري الحلال في كل نفقة ينفقها في أي غرض أياً ما كان.

ولا أنسى أن أشير إلى أن القوم لا يقبلون عاطلاً في طريقهم، فمن لم تكن له حرفة يتكسب منها وينفق منها على نفسه وأهله ردُّوه ليتعلم صنعة، فيعزَّ نفسه عن الحاجة والطلب، ثم يقبلون منه أن ينظروا في أمر صحبته لهم!...

الأساس الثاني: تحصيل العلم الشرعي الضروري .. والعمل به

والعمود الثاني – الذي يقوم عليه بناء جهاد النفس وتزكيتها: هو أنه لا بد أن يعرف ويعمل بما لا بد له منه من الأحكام الشرعية، سواء في العبادات، أو المعاملات، أو العقيدة، أو في الأخلاق.

فطريق القوم ليس بطريق جهل ولا اعتباط، ولا تكاسل عن تحصيل العلم والعمل به، مبنيٌ على العلم والتعلم، وليس هناك من دين يجلُّ العلم وأهله، وأجزل ثواب المتعلمين والمعلمين مثل ديننا، فأولى بكل من أراد أن يسلك سبيل جهاد نفسه – ليصل إلى هداه ورشده – أن يجعل العلم رائده، فيحصل له ما لا بد له منه .. لماذا؟

لأن نفسه هذه – التي يريد جهادها، ويزمع إحكام قيادها بحدود الشرع – وذاك الشيطان الذي يعينها ويوسوس لها .. إنما هما يدخلان للإنسان من الجهة التي يجهل فيها حكم شرع الرحمن ﷻ، فلزم له أن يعرف حكم الشرع في أي أمر يقوم فيه بالعمل، سواءً كان العمل من أعمال الدنيا أو الدين أو أي شأن كان.

وأنا أقول لكم يا إخواني – ويا كُلَّ من أراد أن يتقرب إلى الله: إن أفضل عمل يتقرب به الإنسان إلى الله ﷻ ليست الصلاة ولا الصوم ولا الزكاة ولا الحج، ولكن أفضل عمل يتقرب به الإنسان إلى الله هو طلب العلم الديني والفقه في دين الله ﷻ،

فمجلس علمٍ تجلسه .. عندما نحسب أجره؟ نجده فوق كل تصور وأبعد من كل خيال، فقد ورد في الأثر في أجر مجلس العلم قولهم: ((مجلس علم وإن قل خير من عبادة سبعين سنة ليلها قيام ونهارها صيام)).

أي سبعين سنة عبادة من غير علم، فلو أن واحداً مكث سبعين سنة يقوم ليلها ويصوم نهارها على جهل، وجاء آخر لم يعمل مثل عمله ولكنه حضر مجلس علم صحح به عبادته لكان له من الأجر عند الله أكثر مما للأول الذي عبد على جهل ولم يكلف نفسه بتعلم ما لا بد له منه.

قال المعلم الأول ﷺ وهو يحث كل المسلمين على حضور مجالس العلم: {اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بالصِّين فَإِنَّ طَلَبَ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ}[١٨].

وقال ﷺ: {إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ، قَالَ: مَجَالِسُ الْعِلْمِ}[١٩]. وقال ﷺ أيضا: {مَا مِنْ خَارِجٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ يَطْلُبُ الْعِلْمَ، إلا وَضَعَتْ لَهُ الْمَلائِكَةُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا بِمَا يَصْنَعُ}[٢٠]. وقال ﷺ أيضا: {إِنَّ طَالِبَ العِلْمَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْبَحْرِ}[٢١]

ولذا كانت مجالس العلم أفضل من كل هذه العبادات لأن من يصلي ويصوم ويقوم الليل فعبادته سنة أو نافلة ورسول الله ﷺ أخبر أن طلب العلم فريضة.

[١٨] عن أنس بن مالك ﷺ – البيهقى فى شعب الإيمان.
[١٩] عن ابن عباس رضي الله عنهما – المعجم الكبير للطبرانى
[٢٠] ابن خزيمة عن صفوان بن عسال المرادى
[٢١] ابن عبد البر فى العلم عن أنس رضى الله عنه – (جامع الأحاديث)

ويستوي في طلبه والحاجة إليه الرجال والنساء لأن الإسلام لم يفرق بينهما في شرع الله، في العبادات أو في المعاملات الشرعية، أو بكل شيء في دين الله، إلا بعض الأمور التي تخصُّ الرجال دون النساء والعكس، لكن المجمل عموماً فالكل فيه سواء.

فما هو العلم الفرض على كل مسلم ومسلمة أن يتعلمه والذي لا بد له منه كما قلنا حتى يصح سلوكه لطريق الجهاد؟!! ،... نأخذ ذلك من حديث رسول الله ﷺ عن أركان الإسلام التي بدونها لا ينتصب بناء الإسلام في قلب المسلم، قال ﷺ: {بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُوُلُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ}[٢٢].

فهذا الحديث الشريف هو القاعدة المتينة التي لا بد للكلِّ من أن يشيدها بإحكام، وما عدا ذلك من الزيادات فيتعلمها السالك عند الحاجة إليها، أو قريب ما يأتي أوانها من زكاة أو حج أو زواج أو أولاد أو تجارة ومعاملات أو غيرها الكثير، فإذا جاءت كان لها مستعداً فلا يغرر به، ولا يوقعه الجهل في حيل النفس أو مخالفات الشرع.

ولذا يجب – بلا إبطاء ولا توانٍ – على كل فرد أن يتعلَّم أموراً ثلاثة هي العقيدة والصلاة والصيام، ثم رابعاً أمور المرأة للنساء والفتيات – من أحكام العورات والحيض والطهارة والزينة الشرعية – يتعلمنَّها أو يتعلمها وليهنَّ ليعلمهنَّ إن أحسن ذلك.

ونفصل الأمر قليلاً بإيجاز فنقول: أن العقيدة تبدأ بالشهادتين، وأسرار هذا الإقرار العظيم لله بالوحدانية ولرسوله ﷺ بالرسالة، وما يستلزمه هذا الإقرار العظيم من الرضا بالقضاء والقدر الذي هو آفة ضغوط العصر، ونحتاج فيها أن نفهم أسس قبول الأعمال .. من الإخلاص لله، وابتغاء رضاه، وكيفية تحريِّ الرزق الحلال.

[٢٢] عن ابن مُحَمَّد بن زيد بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما – رواه الشيخان

وكذا عليه أن يتعلم كيفية التحصن بالحصون الشرعية من الآيات القرآنية والأذكار النبوية؛ وذلك حتى لا يقع السالك فريسة الوهم أو الدجل أو المشايخ المشعوذين أو قطاع طريق رب العالمين من أشباه المتصوفين أو غلاة المدعين .. أو غير ذلك عندما تفركه الحياة بين عرض وطلب، أو صحة ومرض، أو فقر وغنى، وغيرها من معتركات الحياة التي لا بد لكي حي من مكابدتها!! .. وقد توقعه نفسه لجهله عندما يمر بمثل هذه الشدائد!!

ثم الأمران الثاني والثالث وهو علم الصلاة والصيام، وطبعاً معهما الطهارة والوضوء والغسل، ونحن مطالبون بالأحكام التي بها يمكننا أن نؤدي الصلاة صحيحة لله – لا لنتبحر ونفتي في أحكامها، وكذلك الصيام، أما الزكاة والحج فكما قلنا إذا حان حينها فُرض علينا تعلم علومها ولا عذر.

وبالطبع هنا حقوق أخرى كثيرة يحتاج كل مسلم أن يتعلمها في وقتها مثل حقوق الوالدين والأقارب ومعاني صلة الرحم، وحق الجار والفقير والمريض وحق الطريق وآداب العمل وآداب الطعام وغيرها، كما يحتاج بالطبع لمعرفة الكلمات المقدسة التي كان سيدنا رسول الله ﷺ يرددها عند كل عمل يعمله في أي شأن من ليل أو نهار حتى يكمل هذه المبادئ التشريعية وهذا ما سنتناوله فيما يأتي لاحقاً بشيء من التفصيل، وأساس كل ما سبق أن يتعلم كيف يخلص عمله لله.

الأساس الثالث: إخلاص العمل لله

فالذي يعمل وينتظر الجزاء من الخلق فقد فسخ عقده مع الحق، فلا ينتظر أجراً من الحق ﷻ ... إذا ماذا يريدُ الحقُّ؟

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ (٥:البينة)

في كل عمل!!، حتى لو اشتريت لزوجتي أكلة حلوة، لا أقول لها أنا اشتريت لك كذا! لأنني اشتريتها لله أولاً .. وليس لخاطر زوجتي في المقام الأول؛ لأنني أريد أن آخذ أجر عملي هذا ممن؟.. من الله جلَّ في علاه .. {إن المرء ليؤجر حتى في اللقمة يضعها في فِيّ زوجته}.

لو أحضر لها هذه اللقمة وقال لها "أنا أحضرتها لك لكي تَكُفِّي عن طلبها أو لتسكتي"، تكون هذه أجرته وانتهى .. ولكنها لله! ولذلك لا أشتري لها إلا ما يرضي الله، وليس الحاكم لي رضاها!، رضاء الله أولاً! ثم رضاها، لأنني أتعامل مع الله.

بل حتى في قضاء الواحد لشهوته مع أهله، فتمام الحديث السابق: {وإن في بضع أحدكم لصدقة}[٢٣] ... فاجعل لك نيَّةً لله ولو في قضاء الشهوة المباحة!.

والمرأة التي تهدي لجيرانها أو أقاربها في المناسبات وتحسب لهم وتسجل هنا خمسون جنيهاً، وعند فلانة زجاجة زيت وكيلو سكر!!، ثم تنتظر المثل! وإذا لم تعطَ المثل تتكلم عليهم وتشكو! فهل كان العمل لله؟ لو كان لم تنتظر عليه جزاءً من أحد.

وكذا في تربيتي لأولادي ونفقتي على عيالي، وفي تربية الأم لأبنائها، وخدمتها في بيت زوجها، فيجب على الجميع أن يجعلوا كل هذا لوجه الله وطلباً لرضاء الله، لا لمنفعة أرتجيها، ولا لأملٍ أنتظره منهم .. ماذا عندهم ليعطوك أو يمنحوك؟!! فلا تعيرهم بما أنفقت – كما يقول بعض الآباء أو الأمهات لأبنائهم: قد فعلنا لكم كذا وكذا، وأفنينا أعمارنا في خدمتكم، ولم يثمر هذا فيكم!! أو هل هذا جزاء تربيتنا لكم!! فكل هذا يفسد جزاء هذه الأعمال العظيمة وأنت بهذا تضيّعها ... لماذا؟.

[٢٣] صحيح البخارى ومسلم عن عامر بن سعد عن أبيه

لأن المؤمنين كل أعمالهم عبادة ... وكلها يقصدون بها وجه الله ويطلبون منها رضاه، ولا من أحد سواه. كان هناك رجل من الصالحين يتعامل بهذه الأحوال فكان يقول ﷺ لإخوانه معلماً وحاثاً لهم: ((إني لا أخرج من بيتي إلا إذا استحضرت سبعين نية في خروجي كلها لله ﷻ)). وكلما زادت النوايا زاد الأجر والثواب ....

وعلى هذا الحال – يا إخواني – كان أصحاب رسول الله ﷺ، دَرَّبَهُم عليه الصلاة وأتم السلام على هذا الحال العظيم؛ بإخلاص العمل لله، وطلب وجهه الكريم ورضاه، حتى أنهم كانوا يفتحون مدينة في فارس اسمها نهاوند – وكانت آخر معاقل الملوك في فارس – وكان حولها حصن كبير، وظلوا شهرين لا يستطيعون فتح المدينة بسبب هذا الحصن، وفي يوم من الأيام كان أحد صحابة رسول الله مشغول البال .. لا يريد أن يأخذ نوط الشجاعة، ولا قلادة النيل!! ولكن يريد أن يأخذ نوط الشجاعة من ربِّ العالمين والوسام من سيد الأولين والآخرين.

فقام ولبس ملابسه، وذهب لجماعة من الجنود لا يعرفونه، وقال لهم: سترفعونني وترموني من فوق السور وسط الأعداء بجوار الباب ... سألوه من أنت؟. قال لهم: ليس لكم شأن!! ... فحملوه ورموه من فوق السور في وسط الأعداء وانهالت عليه السيوف فأخذ يضرب بالسيف من حوله!! حتى قتلهم بإعانة من الله!! ثم فتح فتحة في الباب ونادى على المسلمين!! فدخلوا من الباب!! وفتح الله هذا الحصن وهذا البلد ببركة هذا الرجل، فأعلن القائد العام عن مكافأة عظيمة لهذا الرجل، وكان لا يعرفه، فلم يظهر الرجل ولم يبلغ عنه أحد!! وظل القائد على هذا الحال ثلاثة أيام.

وفي النهاية ذهب له الرجل قائلاً: أنا أعرف الرجل الذي فتح الحصن! وهو يريد أن يقابلك، ولكن له ثلاثة شروط، قال: وما شروطه؟. قال: الشرط الأول أن لا تعرف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بشخصه، والشرط الثاني: أن لا تعطيه أجراً لأنه يريد

أجره من الله ﷻ، الشرط الثالث: أن لا تشهره بين الجيش. فقال القائد: موافق على كل هذه الشروط، من هذا الرجل؟. فقال: أنا!.. وتركه وخرج.

فهذا هو العهد، وهؤلاء هم أهل المجاهدة ... من هؤلاء الرجال؟ .. هم:

﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ (٢٣:الأحزاب)

رجالٌ كان همُّهم كلُّه إرضاء الواحد المتعال ﷻ، لأنهم عرفوا من البداية أن العقد مع الله، العقد الذي يخصُّنا كلنا ما هو؟.﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ ﴾، من الذي اشترى؟ الله .. مِّنَ؟ ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ – الذين كانوا في عصر النَّبيّ فقط أم كلهم؟ .. المؤمنون كلهم إلى يوم القيامة. وماذا اشترى منهم؟ ... ﴿ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ (١١١:التوبة). وبم يعني الله بـ ﴿ أَنفُسَهُمْ ﴾؟ .. يعني حركاتهم وسكناتهم وأعمالهم كلها لله، ومالهم يتصرفون فيه على وفق كتاب الله وكما يأمر شرع الله، طلباً لمرضاة الله، ولا يتصرف فيه قائلاً: مالي وأنا حرٌّ فيه!! ..

لو كان يخصُّك؟. لماذا يحاسبك عليه الله إذاً؟ .. ولكنه يقول لك: أنت تعمل كل شيء بالإخلاص لله، فأنت تطلب مالك ابتداءً كما أمر الله، ثم تنفقه كما وضح شرع الله .. ونيَّتُك من قبل ومن بعد طلباً لمرضاة الله، وتشكر الله عليه، وتؤدي حقه تعالى فيه، ولا تنسى أبداً أنك إنما مستخلف فيه، وأن مالكه على الحقيقة هو الله جلَّ في علاه .. فهذا هو الإخلاص لله ... تريد أن ترضي زوجتك وأولادك فتلك مصيبة المصائب:

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

(٨٨، ٨٩:الشعراء)

هل سأقول يا أولادي لقد اشتريت لكم عمارتين، ووضعت لكم في البنك الرصيد الفلاني، هل سينفعوني هناك؟ هل هناك منهم من يعطيني ويتبرع بحسنة لو احتجتها؟. أبداً لن يحدث:

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ . وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (٣٤ – ٣٧:عبس)

وهو من سيقول لله في هذا اليوم: أن خذ لي بحقي من هذا الرجل!! فيأخذ من حسناتك، فـ ((العيال – أي: الأبناء والبنات – سوس الحسنات)) كما قال الصالحون، وكما أخبرنا الحبيب ﷺ في هذا الحديث: {إن أول ما يتعلق بالرجل في القيامة أهله وولده فيوقفونه بين يدي الله تعالى ويقولون: يا ربنا، خذ لنا بحقِّنا منه، فإنه ما علمنا ما نجهل، وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم. فيقتص لهم منه}[٢٤].

إذن الإنسان الكيّس الفطن الذي يتعامل مع الرحمن – لا مع خلقه – فيخلص العمل لله، وهذا هو العقد: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ .. وما الثمن؟ .. ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ .. وكيف يسدِّدون المال والنفس؟ .. ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ ... وهل هذا العقد مسجل ؟ ...نعم!!... ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ وأين مكاتب التوثيق؟.. ﴿ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (١١١:التوبة).

﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ (١٠:الفتح).

[٢٤] إحياء علوم الدين وتفسير حقي وتنوير الأذهان لإسماعيل البروسوى.

هذا العهد وهذا العقد كلنا أعلناه عندما قلنا: ((لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله))، وهذا معناه: أنني ونفسي ومالي ووقتي وأنفاسي وعمري وحياتي كلها لله، بمعنى أن أمشي فيها كلها على شرع الله، ونيَّتي فيها كلها طلباً لمرضاة الله جلَّ في علاه .. وهذا هو عقد الصالحين.

والذي ينسى هذه الحكاية يضيع؟؟؟ يضيع ويتوه في هذه الحياة الدنيا، وَيُعَرِّضُ نفسه للحساب!! فيقول له الله تعالى: لقد عاهدتنا على كذا وكذا ولم تنفذ، ويا له من حساب بعده ما بعده!! .. ولذلك فإن الإمام عبد الوهاب الشعراني ﷺ وأرضاه – وكان من أئمة الصالحين – عمل كتاباً عظيماً تفصيلاً لهذا العهد سمَّاه: " العهود المحمدية"، فالعهد مجمل، فكتب مذكرة تفصيلية لأنه محامي قانوني في مكتب الحضرة المحمدية.

فالرجل الصالح ﷺ كتب مذكرة تفصيلية لهذا العهد مع الله، وعندما تقرأه تجده يقول: أخذ علينا العهد من الله ومن رسول الله بأن نصدق في أقوالنا، وألا نكذب حتى في لهونا ومزاحنا، ويأتي بالنصوص التي تؤيد هذا الكلام.

أخذ علينا العهد من رسول الله ﷺ أن نكون كذا وكذا، ويسرد كل البنود التي يجب أن تنفذها، فيجب أن تعرف ما البنود التي وراء هذا العهد؟.

وهي الشريعة المحمدية، والأخلاق القرآنية، والمعاملات الإسلامية، والأحوال المحمدية، والتي نحن مأمورون بأن ننفذها في حياتنا الدنيوية طلباً لمرضاة الله جلَّ في علاه ... وهذا هو الفارق بين عباد الله الذين يعملون لله وبين الذين وحلوا في هذه الدنيا، ونسوا ما عاهدوا الله عليه، فأصبحوا يعملون لأنفسهم أو لخلق الله أو يراءون أو ينافقون أو يخادعون أو يغدرون!.

ولِمَ كلُّ هذا؟؟.. لأنه نسي أنه يتعامل مع الله، ... ولذلك ربنا ذكَّرهم، قال لهم: إنك إن ظننت أنك تخدع فلاناً هذا في البيع، أو في الشراء، أو في الكلام، فإنك لا تخدعه ... لأنك متعاقد معي أنا:

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ (٩:البقرة).

بدأ بالله أولاً!! .. إذاً من يخدع مؤمناً فإنه يخدع الله، وكذلك من يخون أو يكذب أو ينافق!!

فَخَـلِّ الخَلْـقَ خَلْفَـكَ ثُـمَّ عَامِـل بِصِـدقٍ ذات مـولاك العليَّـة

افرض إنهم خائنون .. ليس لي شأن بهم، لأنني أوفي بالعهد الذي أخذته على نفسي لله ﷻ، لأنني أتعامل مع الله، وأخلص العمل لوجه الله، وليس لخلق الله، فكل شأن للمؤمن مع غير الله يعاتب فيها من الله لأنه أخذ العهد من الله أن يكون صورة محبوبة بين خلق الله، ممثلة لحبيب الله ومصطفاه، يمشي بشرع الله، مزيَّناً في كل أحواله وسلوكه بزينة:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ (٢٩:الفتح)

الذي يراه يتذكر أحوال حضرة النبي؛ بهديه وأخلاقه، وسمته ومعاملاته، فيشدُّ الخلق إلى الله، لكننا حالياً نقول أننا مع الله فقط في الجامع، وعند خروجنا من الجامع نضع على وجوهنا صورة إبليس!! أو يضع صورة أسد!! أو صورة كبش.. أو صورة قرد..! أو غيره! ... فهل هذا من يخلص العمل لله؟!! أو يعمل لوجه الله؟!!.

فبدون إخلاص العمل لله لا ينفع للمريد جهاد، ولن يبلغ له مراد، ولو قضى في ذلك سنيناً بُعاد .. ولأن موضوع إخلاص العمل لله من أهم أسس جهاد النفس؛ سأذيع عليكم سرًّا من أسرار الرجال، التي بسببها يكرمهم الله بهذا العطاء وهذا النوال ... فمن

أراد أن يسلك على دربهم، ويهتدي بأنوار جهادهم لأنفسهم، وأن ينال ما نالوا فليعلم تمام العلم .. أنهم وصلوا إلى ما وصلوا إليه لأنهم جعلوا أعمالهم وجهادهم بأبدانهم ونفوسهم وأموالهم وكلَّهم لله!!.. ولم يرتضوا ثمناً له في هذه الحياة – ولو كانت كلُّ كنوز الدنيا – تأسياً بأنبياء الله ورسل الله.

السر هو إخلاص العمل ... كل العمل لله ... ولا شيء سواه. (٢٩:هود)

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾

لا يريدون من أحدٍ أجراً لأنهم علَّموه أو أرشدوه ووجَّهوه، أو أبانوا له غامضاً من غوامض العلم، أو أفاضوا عليه شيئاً من غيوب الحكمة، ولا حتى لكي يعظِّمهم ويوقِّرهم مقابل ذلك، فلا يرضون بذلك، ولا تتغيَّر أفئدتهم ولا تتعكر قلوبهم إذا وجدوا إعراضاً أو صدًّا أو غبناً مِمَّن أكرمه الله ﷻ على أيديهم، لأنهم يُعلِّمون ويعملون لله، ولا يرجون الأجر من سواه، طرفة عين أو أقل.

لكن النفوس الصغيرة إذا علَّم الواحد منهم ثلاثة أو أربعة، وواحد منهم مرَّ عليه ولم يعظِّمه .. يقول: لماذا فعل فلان كذا؟! لقد علَّمته كذا وكذا .. ويعمل نشرة ينشرها في الصحف المحلية والعالمية، فهل أنت منتظر منه أجراً؟ .. وهل معه أجر لكي يعطيه لك؟!! إذا انتظرت منه أجراً تكون غافلاً، لأنه أي قدر من كنوز الدنيا والآخرة لا يساوي كلمة هدى تدل على خير وتمنع من ردى؟.

هل مليون دولار يساوي ذلك؟.. لا يساوي والله!!.

إذا كانت التسبيحة الواحدة في صحيفة مؤمن – كما ورد في الصحاح – أعظم وأكبر عند الله من كل كنوز الدنيا الظاهرة والباطنة. فما بالكم بكلمة الهدى .. كم

يكون ثمنها؟!! .. فهم لا يريدون إلا من الله، ولا يرجون من أحد سواه، فتعاملهم مع الله، فهم يعلِّمون الخلق لله.

إن الذي يقول كيف علَّمت فلاناً وتركني وذهب لفلان؟.. نقول له وهل كنت تعلِّمه لكي يمشي وراءك؟.. وماذا تعمل به؟ هب أن الناس جميعاً مشوا خلفك!! هل يرفعوك؟ أو هل ينفعوك؟. بل قد يضلوك ويشغلوك!! .. ماذا تريد إذاً؟ .. الله .. ولا شيء سواه. قال تعالى (٢٨:الكهف):

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾

يا إخواني إذا كانت مشاكل الناس في الدنيا سببها الدنيا التي بينهم!! فمعظم مشاكل الناس المنتسبين لطريق الله سببها أن كل واحد منهم يعاير أخاه.. أنا الذي أدخلتك الطريق وعلَّمتك! فهو يريده أن يظل تابعاً له باستمرار! يا أخي ماذا يمنع التابع أن يسبق المتبوع، ويصير هو المتبوع! لا حرج على فضل الله!!..

وبعض إخواننا أحياناً يسأل .. ويقول عن نفسه: إنني منذ خمسة عشر عاماً وأنا أنزل هذه البلدة أو تلك المدينة، ولا أجد أي ثمرة لدعوة الله!.. ولا أحد يريد أن يمشي معي في طريق الله؟.. في هذه الحالة أقول له: أنك تدعو الناس لنفسك، أم تدعوهم لربك؟!! فلو أنك تدعوهم لله .. ففيم تريدهم إذاً؟.

إنك تقول لهم: هذا هو دين الله، وهذا هو المسجد، وهذه هي الطاعات والقربات والقرآن، فسيروا عليها وتوكلوا على الله!!.. ولكنك تريد أن تدعوهم لنفسك لكي يعظِّموك ويكبِّروك ويشيِّخوك .. وهذه مصيبة من المصائب الكبرى والتي تجعل الإنسان ليس له ثمرة في الدنيا ولا يوم القرار!.. ولكن جرِّب واجعل دعوتك لله!.. وادعُ الخلق لله ... سيأتي الناس كما قال ربُّنا (١-٢:النصر):

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾

وذلك لأنه يدعوهم لله، أما الذي يريد أن يدعوهم لنفسه، ليعظِّموه ويكبِّروه فحكمة الله ﷻ وحرص الله عليه أنهم لا يجتمعون عليه، لأنهم لو اجتمعوا عليه سيضيِّعوه، ويريد منه الله في هذه الحالة أن يراجع نفسه ويفكِّر في أمر نفسه، ثم يعرف خطأه ويصلح من أمر نفسه. لكن لو اجتمعوا عليه، سيعتقد أنه على شيء؛ وهو ليس معه شيء! .. لكن الرجال الذين خُصُّوا بالعطاء والنوال من يأتي إليهم يقولون له ليس لدينا وقت، فنحن مشغولون بالله، ولكن تعال معنا نريك الطريق!..

ماذا تعمل بالخلق؟ .. وهل القلب يتسع للخلق وللحق؟ لا .. إما هذا، وإما ذاك! والقلب المشغول بالحقِّ ليس به جزْء يتسع للخلق.

ولذلك الرجل الصالح المشغول قلبه بالحق؛ عندما يأتيه أحد يشتكي له؛ فيقول له: ليس لدي وقت .. احمل عني يارب! فيحدث المراد، لأنه يرفع الأمر لرب العباد. أما الآخر المشغول بحظِّ نفسه، فيقول له: لماذا لم تأتني؟. ولو أتيت لدعوت لك! فيذهب إليه ويدعو له، ولا يستجاب؛ لأنه يدعو له بنفسه!. لكن الأول المجاهد لحظِّ نفسه والمولى وجهه شطر ربِّه، يرفع الأمر لمولاه، لأن كل عمله لله، فمثل هذا يكون الله في هواه، لأنه جعل نفسه وكلَّه لله جلَّ في علاه.

فما بالكم بمن يطلب ثمن المحاضرة؟!! ... ويتعاقد مع مضيفه؟!! ويطمئن أولاً كيف سيستقبلونه؟!! .. وماذا أعدوا له؟!! .. لأن هذا هو هدفه ومُناه! فيدخل في ديوان أهل الدنيا، ما دام مقصوده هو الأجر – وليس العمل لله، بدليل أنه إذا لم يقبض لا يفعل!. وإذا لم يكرم لا يعود إليهم ثانية! حتى ولو دعوه أو احتاجوا إليه!.

ولكن أهل الله والسائرون الصادقون في طريق الجهاد الشاق.. يدرِّبون أنفسهم دائماً أن مقصودهم وجه الله، ورائدهم الإخلاص لحضرته على الدوام!

ولذلك فإن الإمام مالك مكث مدَّة طويلة يتوقف في: هل تجوز صلاة الإمام الذي يأخذ أجرة؟

فقال ﷺ عندما سألوا: إن كان يظن أن أجره مقابل صلاته بطلت صلاته، فامتنع الأئمة عن أخذ الأجر! ماذا نفعل إذا ؟. قال: تكون الصلاة لله ويعتبر الأجر هديَّة أو عطيَّة من عباد الله .. ولكن لا يتمناها بنفسه ولا يطلبها ولا حتى بحاله! ولكن لكي تصح الصلاة يجب أن تكون لله ﷻ.

وهكذا الأمر في أي شأن من شئون الدين؛ الإخلاص لله رائده، ووجه الله قبلته، وإلا فلن يصح له جهاد نَفْسٍ ولا لِنَفَس! .. ولن يتحرك قيد أنملة، لا .. ولن يبرح مكانه! وربما ظنَّ بوهمه وخياله أنه قطع المفازات! وهو حيث هو مع القاعدين!!!

الأساس الرابع: المرشد العالم العامل

ورابعها ... لا بد له من المرشد .. وهو الذي يأخذ بيديه إلى الطريق القويم والصراط المستقيم، وينبغي له أن يكون ملازماً للأدب معه في هذا المقام، الأدب الذي كان عليه الصحابة الكرام مع المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ... فسيدنا موسى .. مع أن الله اختاره لنبوته، وأنزل عليه رسالته، إلا أن الله لما أراد له الكمال وبلوغ مقامات كُمَّل الرجال، ووجد أن النفس ما زالت منه على بال، أمره أن يذهب إلى رجل من الصالحين ليتكمل على يديه ... واختصر لكم القصة اختصاراً:

أن الله ﷻ بعد أن مَنَّ على موسى وقومه وخرجوا من مصر، وأهلك فرعون وجنوده، فرحوا بفضل الله وعقدوا اجتماعاً ليشكروا الله، فأخذ سيدنا موسى عليه السلام يعدَّد نعم الله ﷻ عليه وعلى قومه، وألهمه الله منها بالكثير، حتى كانت أعينهم لا تكفُّ عن الدمع، ولما انتهى موسى عليه السلام من حديثه سألوه: يا موسى! هل هناك من هو أعلم منك؟ قال: لا .. فعاتبه الله ﷻ في الحال، لأن الله ﷻ يحب التطامن والتواضع من العبيد للحميد المجيد ﷻ، وقد قال لنا أجمعين في القرآن (٧٦:يوسف):

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

وإياك أن تظن في نفس من الأنفاس! ومهما بلغت في الدراسة أو حَصَّلْتَ من العلوم، أو كان لك من المؤلفات أو المستمعين والمستمعات! إياك أن تستكبر أو تستعظم أن تحتاج إلى المرشد في طريق القوم، فحاجتك للشيخ المربي والمرشد العالم العامل! الذي يأخذ بيدك متحققة لقول الله تعالى لحبيبه ﷺ الذي علَّمه مولاه ما لم يعلِّم أحداً من العالمين سواه:

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (١١٤:طه)

فمع أن الله قد علَّمه علوم الأولين والآخرين والمعاصرين، ولم يترك علماً كان أو كائنٌ أو سيكون؛ إلا وأفاء عليه منه علماً، ومع ذلك يأمره ربه أن يطلب المزيد من العلم ولا يتوقف أبداً عن طلب ذلك!! ... فلا نهاية لطلب العلم، ولا انتهاء لتحصيل العلم من المهد إلى اللحد.

فأوحى الله ﷻ إلى موسى وعاتبه أن كيف قلت ذلك وهناك على الأرض من هو أعلم منك؟! فعجب وقال: من هو يا رب؟ دلَّني عليه. قال (٦٥:الكهف):

﴿ عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾

اذهب إلى الخضر! .. فسأل أين يا رب؟ .. فقال: تجده عند مجمع البحرين، فخذ معك فتاك ومِكْتَل (قُفَّة) فيه سمكة مشوية وطعام، فإذا قفزت السمكة للماء! فهذا موضعه.

فجهز سيدنا موسى عليه السلام ما طلبه منه الملك العلام، وسافر ومعه فتاه، والمكتل وبه السمكة والطعام، وأمره أن يراقب الحوت ويُعلِمَهُ إذا تحرك، ونذر موسى لله أن يمشي إلى العبد ولو طال السفر مئات السنين! ليتعلم منه (٦٠:الكهف):

﴿ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴾

فعلى طالب العلم ألا يكلَّ ولا يملَّ؛ بل عليه مهما علَّمه الله أن يطلب المزيد من العلم من الحميد المجيد ﷻ، سرَّ قوله ﷺ: {مَنْهُومَانِ لاَ يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ، وَطَالِبُ دُنْيَا}[٢٥].

مشى موسى عليه السلام وفتاه، فلما وصلا إلى الصخرة التي قدر له أن يلتقي عندها بالعبد، كانا قد تعبا من المشي، فألقي عليهما النوم فناما، وجاء العبد وتوضأ فأصاب الماء الحوت فاحتيا بإذن الله ومشى في البحر سرباً، ثم ذهب العبد، فاستيقظ موسى وفتاه، وأكملا السفر، ثم شعرا بالتعب والجوع، فأرادا أن يأكلا، فقال موسى عليه السلام لفتاه (٦٢:الكهف):

﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ﴾

ففتش الغلام في المكتل فلم يجد الحوت! فتذكر وعند ذلك رجعا على آثارهما، وعندما وصلا إلى الصخرة وجدا الخضر عليه السلام نائماً، فقال الخضر: أنت موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، ومن أدراك بي؟ قال: الذي أرسلك إليَّ!!

[٢٥] عن أنس، البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما (جامع الأحاديث والمراسيل)

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ (٦٦-٦٨:الكهف)

وعند ذلك جاء عصفور وشرب من البحر، فقال الخضر عليه السلام: {يَا مُوسَى، أَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ اللهُ .. لا أَعْلَمَهُ أَنَا، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَنِيهُ اللهُ .. لا تَعْلَمَهُ أَنْتَ، وَمَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ فِي عِلْمِ اللهِ إلا كَمَا أَخَذَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْيَمّ}[٢٦].

أي القطرة التي أخذها العصفور من البحر .. وكذلك كم يكون مع البشر جميعاً من أولهم إلى آخرهم مما أفاض الله عليهم من علومه وأسراره وإلهاماته؟ كل ما مع الخلق من بدء الدنيا إلى منتهاها بجانب علم الله لا يساوي ولا حتى ذرة! لأن علم الله ﷻ لا يعدُّ ولا يحدُّ، لأنه ﷻ هو العليم الحكيم.

فطلب موسى – وهو نبيُّ الله وكليمه ومن أولي العزم من الرسل – طلب من العبد الصالح أن يتَّبعه ليعلمه من الرشد الذي أفاضه الله عليه، فأفهمه العبد أنها أحوال عالية! ليس من السهل عليه وهو عالم الشريعة الصبر عليها وليس عنده خبر من سرّها، ولكن موسى عليه السلام وعده بالصبر، فاشترط عليه العبد ألا يسأله عن شيء حتى يكون العبد هو من يكلمه فيه أولاً.

آداب وتعاليم بين المعلم والمتعلم.. بين المرشد والمسترشد.. بين الشيخ المربي وتلميذه ... أن الله ﷻ يعلمنا أن عالم الشريعة لا بد له أن يتعلم من عالم الحقيقة، وأن عالم الحقيقة لا بد له أن يستمد من عالم الشريعة. فالعالم الحق هو الذي يعمل بشرع الله

[٢٦] تفسير روح البيان وتنوير الأذهان لإسماعيل البروسوى

في ظاهره، ويستمد من أنوار الله علوماً وحقائق في باطنه حتى يكون كما قال الله (٢٦٩:البقرة):

﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾

ومشى موسى عليه السلام مع العبد، وبدأت رحلة النبي المتعلم والعبد المعلم، والتي سطرها الله لنا خالدة في كتابه الكريم لتكون هدىً ونبراساً ...

فمَنْ بعد هذا البيان يا إخواني يستكبر أو يستنكف – مهما كان علمه أو عمله – أن يبحث عن الشيخ المربي والمرشد المعلم؟؟!!

وأزيدكم سادتي القراء وإخواني الأفا ضل بياناً فأقول: إن الحاجة للشيخ المربي في طريق القوم والمرشد – لسلوك سبيل جهاد النفس وكشف مكنونها – هي حاجة ضرورية ملحَّة، لأنه لا يوجد أحد يمكنه أن يجاهد نفسه بمفرده ... لا يوجد!! فلابد من وجود المرشد أو الشيخ أو المعلم أو المربي ... ودعونا نقول بلغة وتعبيرات العصر: لا بد من الطبيب!! طبيب مجرب خبير وبالطب بصير متخرج من كلية:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ (٢٩:الفتح)

ومعه أشعة مكتوب عليها (١٠٨:يوسف):

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾

يكشف عليَّ بالأشعة التي معه، ويبيّن لي عيوبي، ويعطيني الدواء من صيدلية القرآن وأجزخانة النبي العدنان، فهما صيدليتا دواء لكني لا أعرف ما بي من داء؟!! ولا روشتة الدواء؟!! ... فلا بد من ناصح مجرب مأذون خبير أشار إليه العلي القدير في قوله:

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ (٥٩:الفرقان)

فإنه يعرف ما بي، ويعطيني الدواء المناسب لي، مثل ما كان رسول الله ﷺ يفعل مع أصحابه ... وخذ على سبيل المثال..

فمن شخص يقول له: يا رسول الله عظني! فيقول له: (لا تغضب)!، وآخر ينصحه: ألا تكذب، وثالث: يضع يده على صدره ويدعو له ... ورابع: يقول له: ارفع صوتك بالقرآن قليلاً، وخامس: يأمره أن اخفض صوتك قليلاً، وسادس: يسأله مرافقته في الجنة، فيدعو له ويبشره بذلك!

وسابع يقول له: أن أكثر من السجود ... فهذا تزكية نفسه..

وثامن: يأمره بإطابة مطعمه، وتاسع: يأمره بالصدق..

وواحد يسأله أن يخصِّص له الورد من القرآن، فيقول له: لا تتمه في أقل من ثلاث، وآخر يأذن له أن يقرأه في سبع، وغيره ينصحه ألا يكن همُّه أعداد الآيات!!

وواحد يقبل منه صدقته بماله كله!! لأنه يراه أهلاً لذلك، وآخر يقول له ﷺ : (لا، بل الثلث، والثلث كثير)!!

وفقير يطلب الصدقة فيأمر الناس أن يتصدقوا عليه!، وغيره يعطيه ﷺ الصدقة ويأمره أن يشتري منها قادوماً ويحتطب! ثم يعود بعد أسبوع ليتابعه ماذا فعل؟.

وواحد يطلب الاستزادة من الصيام فيقول له: يكفيك صيام ثلاثة من كل شهر، وآخر يأذن له بصيام يوم ويوم ...

هل اكتفيتم من الأمثلة؟؟؟ ..

والله لو جلسنا نعدد الوصفات النبوية والروشتات المحمدية المختلفة من واحد لآخر – وهي متنوعة ومتعددة!! وكثير منها في شئون ظاهرها متشابهة، ولكن باطنها

مختلف؛ لأنه يعطي كل طالب تذكرة الدواء المناسبة لقواه الروحانية، وأعضاءِه الجسمانية – ما استطعنا أن نأتي بها كلها.

ولذا نؤكد ونقول: إياكم من قطَّاع الطرق!! لا بد أن يكون المرشد الطبيب الخبير المجرب معه أشعة البصيرة! ولديه إذنٌ من الذات المنيرة ﷺ، فهو لا يوصل بنفسه، ولكن بفضل الله يوصل على الله، وبتوفيق الله يرفع القوم إلى حضرة مولاه لأنه أخذ الإذن ومعاليم الإشارة من مولاه ﷻ:

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (٤٦:الأحزاب)

ولذلك نقول أن الطبيب إذا لم يكن معه إذن من الحبيب ﷺ فيجوز أن يعطيني مضاد حيوي ألف وحدة وأنا لا أتحمل إلا مائتين وحدة فقط! إذا لا بد أن يعطيني جرعة الدواء التي تناسبني، وإلا فإنه يعرضني للتلف أو الموت! وهذا ليس هو الطبيب الروحاني الذي بواسطته أستطيع أن أجاهد نفسي.

فهو طبيب نوراني وحكيم روحاني، علَّمه طبيبٌ سابق؛ فلتعلم يا من تستكبر أن تعرف مسالك الطريق على يد المرشد الخبير أن هذا المرشد الخبير ما عرف الطريق وسلكه إلا على يد مرشد سابق، وخبير قبله حاذق.. وهكذا واحدٌ وراء الآخر.. وصولاً إلى الخبير الأعظم ﷺ ...!

هل ينفع أن يتعلم الإنسان الطبَّ من الكتب؟ من غير أن يدخل مستشفى عملي؟ أو طبيب يعلمه؟. طبعاً لازم يطبق هذا العلم في المستشفى، ويرى الأطباء ويعلموه ويوجهوه، هذه العملية تعملها كذا .. أما الأخرى فكذا وكذا .. وهكذا في كل أمر!! وإذا كان هذا في طبِّ الأجسام؛ فما بالكم بطبِّ القلوب، وإذا كان طبُّ الأبدان

لابد له من الممارسة والخبرة، فما يريده طبُّ القلوب أكثر وأكبر، وكما قال الرجل العارف ابن البنا السرقسطي ﷺ:

إنما القوم مسافرون لحضرة الله وظاعنون
فاحتاجوا فيه إلى دليل عالم بالسير وبالمقيل
قد سلك الطريق ثم عاد لينبأ القوم بما استفاد

فلا بد لي من المرشد العالم العامل المجرب الخبير المأذون والطبيب الحاذق، فإذا ذهبت للمرشد العالم العامل عرفني وعلمني وأخذ بيدي.

نفسك هي الطريق إلى الله

وأشار إلى الطريق الذي عليَّ أن أقطعه إلى الله تحت إرشاده وتوجيهه.

أتعلمون ما الطريق إلى الله الذي يجب أن تقطعه؟

أتعلمون أين هو هذا الطريق الذي يوصل إلى الله ﷻ؟

هذا الطريق – يا إخواني ويا أحبابي ويا أيها القراء والقارئات الكرام – هو طريق فريد لكل واحد منا، ولا يتشابه طريقان على التمام!!!

لأنه طريق معنوي! أتعرفون أين يقع؟!! يقع بداخلك أنت!! يوجد بداخلك أنت ... ألا وهو نفسك التي بين جنبيك، فالطريق هو منك إلى الله؛ فمحطة ابتداء السفر هي أنت، والطريق هو نفسك، والوصول يكون لله .. فأنت تسافر من نفسك على يد المرشد الخبير المجرب .. لكي تصل إلى ربك ﷻ ....

فالنفس التي هي كلها عوالم معنوية .. والتي هي الطريق إلى الله الذي يجب أن تقطعه .. إذاً فهو طريق معنوي .. والوصول إلى الله ﷻ وصول معنوي!!! وجمال الله ﷻ والقرب من حضرته، جمال وقرب معنوي.

فالدليل في هذا السفر الشاق والمرشد الخبير بوعورات النفس وعقبات هذا الطريق الوعر قد سلك الطريق ثم عاد علي يد عبد مؤهل من العباد، فأهله الله لتحقيق المراد، وأذن له بتقريب البعاد، وجعله طبيباً للقلوب وللأرواح، وأعطاه مفتاح الصلاح، وقال له: اذهب لهؤلاء وعرفهم الطريق، فأنت دليلهم بنا علينا، وأنت الذي توصلً بنا إلينا!!.

فيا سعادة من عرف المرشد الخبير .. والدليل النبيل...

ودخل عليه بتسليم وصدق .. وطلب السبيل..

ووضع بين يديه بانكسار قلبه العليل ...

عندها فقط ... ووقتها فقط ... تبدأ المسير ...

****

الفصل الثالث

تزكيةُ النفس

- في صحبة المرشد والمعلم
- العمل وإحكام أساس البناء
- التوبة النصوح

علم تزكية النفس

أولا: ماذا أجاهد؟.

- **الفرق بين خواطر النفس ووساوس الشيطان**

ثانيا: كيف أزكي أو أجاهد نفسي؟.

- **الوسائل المعينة على تزكية أو جهاد النفس**

أولاً: الإقلال من الطعام

ثانياً: الإقلال من الكلام

ثالثاً: الإقلال من المنام

رابعاً: الإقلال من مخالطة الأنام

خامساً: ذكر الله والتفكر على الدوام

- **ذكر الله بتلاوة القرآن الكريم**
- **ذكر الله بالاستغفار والمداومة على الأوراد والأذكار**

- بسم الله
- أذكار الصباح والمساء
- سرُّ: (ما شاء الله لا قوة إلا بالله)
- ذكر: (لا إله إلا الله)
- الصلاة على رسول الله ﷺ

الغاية من تزكية أو جهاد النفس

أولاً: التخلق بأخلاق رسول الله ﷺ

ثانياً: لتصحيح الوجهة وشحذ الهمة

ثالثاً: أن يصير حاكماً لمملكة نفسه لا عبداً في بلاطها

رابعاً: للرجوع للأصل والوطن الأول

خامساً: ليبلغ مراتب القرب

سادساً: للتخلق بأخلاق الله

سابعاً: لينال الفتح النوراني

الفصل الثالث

تزكيةُ النَّفس

في صحبة المرشد والمعلم

فإذا أتيت المرشد الرباني وتحقق بصدقك في طلب طريق القوم، وبرغبتك الصادقة في جهاد نفسك لتطهر وترتقي ... بدأ معك ... والطريق يا إخواني طويل... ونكتفي منه بما يناسب هذا المقام من الحديث عن النفس وجهادها ... فقبل أن يقبل منك أن تتبعه أو تصاحبه ليعلمك أو ليرشدك..

العمل وإحكام أساس البناء

يتأكد أولاً أنك لك حرفة تنفق منها على نفسك وعلى من تعول. فإن لم يكن لك مهنة وتريد أن تصحبهم للتكسب أو الانتفاع أو التنطع!! ردُّوك لتعمل؛ ثم تأتيهم للتعلم عزيز النفس! فهذا دأبهم على الدوام .. وعلى مر الأيام.

ألم تعرف أن شهرة سادتهم وكبرائهم كانت: الورَّاق، والزجَّاج، والسمَّاك، والصيَّاد، والحدّاد، والخيَّاط، والدبَّاغ ... كانوا يشتهرون بحرفهم، لأن ذاك كان عَلَمَهم الأول الذي يرفعون؛ لسنا عالة على أحد، ولا نقبل البطالة ولا البطالين بيننا!!.

وهذه الأولى، ثم تأتي الثانية والثالثة.. فقبل أن يعلمك أو يدخلك على جهاد النفس، فلا بد أن يتأكد أنك أحكمت الأساس الذي يصح منه بدء المسير؛ والذي هو كما أسلفنا مبني على المطعم الحلال، والعلم الشرعي اللازم، وإخلاص العمل لله.

فإن وجد المرشد نقصاً أو خللاً أمرك بإكماله، وبيَّن لك سبيل إتمامه، لأنه لا يصح سلوك والمطعم فيه شبهة، أو العلم الشرعي فيه فجوة، أو نية العلم والعمل فيها لغير الله وجهة! فكل هذه عوائق قاطعة لا يمكن معها سلوك ناجح ولا إرشاد فالح، ولابد من معالجة الخلل قبل البدء بالعمل الذي يوصل للأمل!

التوبة النصوح

فإذا تحقق منك المرشد بهذه الثلاث، أخذ بيديك لتتوب إلى الله التوبة النصوح لأنه بدونها لا يصح وقوف بباب الله:

وأهم شروط التوبة النصوح: هي أن يقلع عن الذنب، ويشعر بالندم والخجل من الذنب والعيب، ويعزم على أن لا يعود إليه أبداً – هذا إن كان في حق ربِّه.

أما إن كان الذنب والتقصير في حق عبد من عباد الله، فقد وجب عليه أن يرد المظالم لأهلها، ووجب عليه أن يبذل في سبيل ذلك كل المجهود لإرجاع الحقوق السليبة أو المغتصبة إلى أصحابها، فإن كان أصحابها قد فارقوا الدنيا وجب عليه إعادتها إلى من خلفهم، لأنه من ظلم عبداً – أي عبد – ثم تاب إلى الله سالكاً كل أبواب التوبة .. لكن دون أن يرد لهذا العبد حقه؛ هل بذلك قد تاب وأناب؟ .. كلا!! .. إذن لا بد أن يتوب، ويصبح بعد ذلك عبداً منيباً:

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾ (٥٤:الزمر)

متى تتحقق هذه الإنابة؟ ..

بعد كمال التوبة! وهذا الكمال له علامات ... منها: أن يشعر العبد بزهد في قلبه نحو كل الشهوات التي ذكرها الله (١٤:آل عمران):

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ

وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾

وما دام في القلب شعبة نحو واحدة من هؤلاء .. فإن التوبة النصوح لم يتقبلها التواب ﷻ بعد! وتحتاج إلى ملحق يلحقه العبد .. ويقوم فيه خالصاً مخلصاً في توبته لله، حتى يتقبل الله منه المتاب.

فإذا تاب التوبة النصوح؛ علَّمه الشيخ الولي المرشد أن التوبة شأنٌ لازمٌ له ليل نهار، وأنها تصحبه في جميع الأحوال والمقامات والأطوار، ويحققه بأنه إن كان رسول الله ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم وما تأخر .. كان يتوب إلى الله سبعين أو مائة مرة في اليوم والليلة! فما باله بنفسه؟!! ...كم مرة يحتاج أن ينيب ويتوب؟!!.

علم تزكية النفس

فبعد ذلك يدخله المرشد الطبيب... الورشة العلمية والعملية لجهاد النفس، وفيها يعلمه المرشد ثلاثة أشياء:

- أولاً: ماذا يجاهد؟.
- وثانياً: كيف يجاهد؟.
- وثالثاً: ما الغرض من مكابدة جهاد النفس هذا .. الشاق والمرير؟ وذلك ليكون هدفه نصب عينيه ليهون عليه الطريق.

أولا: ماذا أجاهد؟

أجاهد النفوس التي هي فيَّ، وهذه قال فيها أبو العزائم ﷺ:

فطر النفوس تقودها لعناها والله بالشرع الشريف هداها
لولا الشريعة بيَّنت سبل الهدى ضلَّت نفوسٌ في سحيق هواها

نفسٌ تميل إلى الحظوظ بطبعها والقهر والإفساد كلٌّ منـاها
والجسم آلاتٌ لها تسعى به وبريدُها الحِسُّ الذي أرداها

أجاهد النفس الأمارة المذكورة في قوله ﷺ: {الْمُؤْمِنُ بَيْنَ خَمْسِ شَدَائِدَ: مُؤْمِنٍ يَحْسُدُهُ، وَمُنَافِقٍ يُبْغِضُهُ، وَكَافِرٍ يُقَاتِلُهُ، وَنَفْسٍ تُنَازِعُهُ، وَشَيْطَانٍ يُضِلُّهُ}[1].

ولأن النفس بها دسائس، ولها وساوس، ولها أحوال تجعل الإنسان إذا اتبعها يقع في الوحل وفي الخبال، وإليها الإشارة بقول الواحد المتعال:

﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ (٥٣:يوسف)

ولم يقل "إن النفس لآمرة" .. لأنه لو قال: "لآمرة"، يكون الأمر مرة واحدة، لكنه وصفها بأنها: (أمَّارة) – بصيغة المبالغة، أي: كثيرة الأمر، فلا تمل من تكرار أمر الإنسان بالسوء. والسوء: قل فيه ما شئت: ما يفسد الجسد، وما يفسد القلب، وما يفسد ما بين الإنسان وأخيه، وما يقطع الأرحام، وما يجعل الإنسان في غفلة تامة عن الملك العلَّام، كل هذه المعاصي والمحن والفتن تُسمى: السوء.

ويعلمه المرشد أنواع النفوس التي يجاهدها الإنسان، وقد سبق ذكرها وتفصيلها في الفصل الأول من هذا الكتاب، وعددها سبعة نفوس.

ويعلمه المرشد أيضاً كيف يفرق بين وساوس النفس ودسائس الشيطان؟

كيف يعرف أن هذا خاطر من النفس أو وسوسة من إبليس اللعين؟ كيف ذلك؟

الفرق بين خواطر النفس ووساوس الشيطان

أنت أيها السالك لا ترى إبليس:

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (٢٧:الأعراف)

[1] أخرجه أبو بكر بن لال من حديث أنس رضي الله عنه.

إبليس هو الشماعة التي نعلق عليها أخطاءنا، قال القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٧٦:النساء)

وكيد النساء أشد منه!! .. نعم، قال تعالى:

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ (٢٨:يوسف)

فالمشكلة التي معنا ليست إبليس، وإنما كما قال ﷺ: {أعدى أعداؤك: نفسك التي بين جنبيك}[٢]... فكيف أعرف أن الوسوسة التي بصدري من النفس؛ وليس من إبليس؟.

هناك عدة أشياء: أولها أن إبليس يأمر بالمعصية، أو بترك الطاعة؛ فَيُزَيّن لي معصية كي أقع فيها، أو يُقْعدني كي لا أصلي الصبح حاضراً، ويحضر لي مخارج ذكية وعلل نفسية، كي أقنع نفسي وأطيع لوسوسته، أما النفس فتأمرني بالشهوات!! .. والفرق شاسع بين الاثنين.

فالنفس شهوة مطعم أو مشرب أو ملبس أو منكح فاحذر بها الداء الدفين

هذا هو الفرق الأول .. أما الفرق الثاني: إبليس عندما يأمرني بمعصية لا يلح، لأنه يريد أن أقع في المعصية بأي كيفية، وعندما لا أفعل هذه المعصية! يُزيّن لي غيرها، لأن أهم شيء عنده أن أفعل المعصية. أما النفس فطلباتها تلح عليَّ فيها، ولا تتركني حتى أفعل ما تأمرني به!!

فمثلاً: تشتهي نفسي أكل أكلة معينة؛ لا تتركني نفسي إلا إذا أكلتها، أريد أن ألبس هذه الملابس تستمر ورائي وتلح في الطلب، وإبليس بغير النفس لا يستطيع أن يفعل شيئاً، ولذلك قال بعض الصالحين: ((من الناس من اشتغل بمجاهدة إبليس

[٢] رواه العسكرى فى الأمثال عن سعيد بن أبي هلال

فأوقعهم ذلك في التدليس، ومن الناس من اشتغل بمجاهدة النفس؛ وجعل كل الدنيا والآخرة خلف ظهره، فوقاه الله ﷻ همَّ إبليس، وما عداه)).

وأنا لا أستطيع أن أشغل نفسي بمحاربة إبليس، وإنما الفَطِن يُقْبل على الله إلى أن يقول الله تعالى في شأنه: هذا العبد في معيتي (٤٧:الحجر):

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ ﴾

أي: إياك أن تقترب من هؤلاء!! .. فهذا سيدنا عمر، عندما كان يمرُّ بشارع لا يستطيع إبليس أن يمرَّ من هذا الشارع، ومعنى ذلك: أن سيدنا عمر كان يحفظ حتى أهل الشارع من وسوسة الشيطان، ولذلك قال فيه ﷺ: {ذاك رجل يفرق منه الشيطان}[٣].

كيف أزَكِّي أو أجاهد النفس؟

ذكر الله لنا في قرآنه، وبيَّن النبي ﷺ لنا في سنته، ووضَّح الصالحون في جهادهم – الوسائل التي تُعين الإنسان على جهاد النفس، حتى ينتهي من هذا الجهاد في سرعة سريعة، لأن العمر قصير والمطلوب عظيم، والنفس تراوغ الإنسان، فإذا أمسكها في واد، ذهبت إلى وادٍ آخر، ولها دسائس تخفى حتى على كبار العارفين، ولذلك قال مولانا أبو العزائم ﷺ: ((لا ينتهي جهاد النفس حتى مع كُمَّل العارفين إلا مع خروج النَفَسِ الأخير)).

[٣] متفق عليه عن سعد

فإياك أن تظن أن جهاد النفس انتهى معك، لأن نفس هذا الظن خدعةٌ من خدع النفس تخدعك بها.. وتجعلك تُقطع بالكلية عن حضرة الله ﷻ، لكن جهادها دائم ودائب ومستمر، قال تعالى (٧٨:الحج):

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾

وحق الجهاد ما كيفيته؟!! سألوا الرجل الصالح: ماذا نفعل حتى نصل إلى الله؟ .. فقال:

أيها الطالب معنى حسننا مهرنا غال لمن يطلبنا

والمهر هو:

جسدٌ مضني وبدنٌ في عنى وعيون لا تذوق طعم الوسنا

فالجسد في الجهاد لا ينام، والنفس في عناء وحرب مستمرة، والعيون لا تنام، جاء الإمام أبو العزائم ﷺ وأرضاه، في شهر رمضان بعد انتهاء السهرة وقال لإخوانه: تعالوا معي لزيارة سيدنا الحسين، فوجدوا هناك بعض المقاهي، وروادها ساهرون لا ينامون إلا بعد الفجر، فقال لهم: إذا كان الجماعة الذين يرضون شهوات أنفسهم ويتبعون الشيطان، لا ينامون إلا بعد مطلع الفجر..، فكيف بالذي يريد أن يرضي الرحمن ﷻ !! ماذا يفعل!! وكيف ينام!!

وكيف ينام معشوق لليلى وليلى تشتهي منه القيام ؟!!

وفي مرة – وهو ﷺ في الحج – ورأى بعض إخوانه وقد غلبهم النوم، فقال لهم: هيا بنا نطوف حول الكعبة، وكان معهم الخادم الخاص به وهو الشيخ أحمد السبكي ـ رحمة الله عليه ـ فقال له:

أحمد السبكي تنام وتدَّعي حُبَّنا نوم أهل القرب في الزلفى حرام

قال له هذا، ليحثه على الجهاد، ولا ينتهي هذا الجهاد، ولا السهاد، إلا بعد فراغ القلب من البلاد والعباد، وكل الصور التي تمنعه عن المنعم الجواد؛ ويحيا حياة المتقين، فينام نومة الهائمين، وأيضا وهو مستيقظ فهو هائم، فيكون مع الله في كل حال، وهذا يكون قد انتهى أمره.

لكن الذي خلط عملاً صالحا وآخر سيئاً ...فلا بد له من الجهاد!!

ما الذي يعينك على هذا الجهاد؟

وضح الصالحون: أن الذي يجعل النفس تسيطر على الإنسان وتحركه وتسيره؛ هو كثرة اختلاطها بالخلق، واهتمام الإنسان بمطالبها وشهواتها؛ كشهوة الطعام، وشهوة الشراب، وشهوة النكاح، وشهوة الملبس، وشهوة الرياش والأثاث، وكثرة الكلام، فالنفس بطبيعتها تميل للإفساد كما سبق وأسلفنا التوضيح.

فأول الجهاد – لمن أراد القرب والوداد من رب العباد – أن تجاهد النفوس التي فيك: "جاهد نفوساً فيك" – أي أن الجهاد بداخلك أنت!! "جاهد نفوسا فيك بالشرع الأمين" – أي بالشرع المعتدل، بالشرع الذي يأتيك من الصالحين، ومن أئمة المتقين، ولا تمش وراء الشَّاذِّين، وتفتح الأبواب المهجورة من الشرع، بل خذ الوسطية ... وَسِرْ على النهج المحمدي:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (١٤٣:البقرة)

ولذلك قال في القصيدة الأخرى: "فكن وسطاً يا طالب الإقبال". والمنهج الذي نسير عليه: الوسطية.

فنتكلم باختصار شديد، عن ميدان مجاهدة النفس، وكيف يجاهدها الإنسان؟. والوسائل المعينة على هذا الجهاد.... حتى يبلغ الإنسان المراد؟.

الوسائل المعينة على تزكية النفس

وللإجابة نقول: أن للمجاهدة سبل ووسائل معينة على ذلك، وهي التي تعين الإنسان على بلوغ الكمالات أو نوال الفتح، ألا وهي بالإقلال والإكثار ... الإقلال من أربع، والإكثار والمداومة على واحدة:

- الإقلال من الطعام، والكلام، والمنام، ومخالطة الأنام.
- والإكثار أو المداومة على ذكر الله ﷻ والفكر في كل مقام.

جمع الإمام أبو العزائم ﷺ وأرضاه بعض هذه الوسائل في قوله ﷺ:

جُـعْ أضـعفنها واحـذرن مِـنْ غَيِّهـا غُضْ الجفون وحـاذرن فَتك الكمين

أولاً: الإقلال من الطعام

فالإنسان إذا ملأ المعدة بالطعام، فوراً تتحرك النفس لدفع الإنسان إلى المعاصي والذنوب والآثام، ولذلك فإن السيدة عائشة ﷺ كانت تقول: (أول بدعة حدثت بعد رسول الله ﷺ الشبع، إن القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى الدنيا)[٤].

فعندما تمتلئ المعدة بالطعام يفكر الإنسان بجوارحه في الذنوب والآثام، ولا يجد لذة ولا حلاوة طعم الطاعة، لكن إذا كانت المعدة خالية من الطعام، فإنه لا يقوى على المعاصي، بل تقوى روحانيته، وتقوى طاعته لله؛ كما يحدث معنا جميعاً في نهار رمضان .. وهذا هو الجهاد الأعظم.

وهذا الجهاد درجاتٌ ودرجات، ولا يزال طالب الله يجاهد ويرتقي حتى يصل في هذا الأمر إلى العجب العجاب، وكان لبعض الصالحين في ذلك أمور تحير العقول!!

[٤] سبل السلام ، وإحياء علوم الدين للغزالي

فسيدي أحمد البدوي ﷺ وأرضاه، كان يقف أربعين يوماً وليلة في غار حراء، يتعبد لله ﷻ .. لا يأكل ولا يشرب ولا ينام... أربعين يوماً!!، وكان الإمام الجنيد ﷺ – وهو سيد الطائفة – يصوم ولا يفطر إلا كل أربعين يوماً مرة!! وعلى تمرة واحدة!! ولا تقل كيف؟!! .. لأنه وصل إلى ذلك بالجهاد، وَمُنَّ عليه بوراثة نبوية من سرِّ قوله ﷺ : {إِنِّي أَبِيتُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي}[٥].

وأقول ثانية: لا تسأل كيف!!؟ ... لأن هؤلاء داخلون في قول الله:

﴿ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ (٢١٢:البقرة)

وهذا الكلام في هذه الأحوال العلية إنما هو في طور الجهاد، لكن في طور الإرشاد .. لا بد أن يأكلوا، لكي يعلموا الناس كيفية الأكل، بالطريقة السديدة الواردة عن سيد الأنام ﷺ.

ذهب رجل للجنيد يوماً وقال أريد أن أجد الخشوع في الصلاة، ولكني لا أجده!! فماذا أفعل؟ قال له: { يا أخي أتملأ بطنك بالطعام! وتجعل بينك وبين ربك مخلاة!! ثم تريد أن تجد الخشوع في الصلاة!!}. فهو يريد أن يعيده إلى الأحوال الزكية أيام رسول الله ﷺ. متى كانوا يأكلون؟. أثلاث مرات مقدسات؟!! ... لا بل كانوا يأكلون عندما يجوعون! فإذا أكلوا لا يملأون بطونهم ولا يشبعون، ويقومون من على الطعام وهم له مشتهون.... وهذا هو طريق القوم.

وإذا جاع الإنسان؛ قلت بواعث الشهوة في نفسه، فيقل نومه، ويكثر صمته، ولا يستزيد من سماع الأحاديث، ولا يتحرك هنا أو هناك.

[٥] رواه الترمذى وابن ماجة وكذا الحاكم

فوجد الصالحون أن الجوع من أقوى الأسباب المعينة للإنسان على بلوغه هذا المقام، فتنافسوا في الصيام .. لا عدًّا للأيام ... ولا تكثيراً للحسنات العظام من وراء تعديد أيام الصيام، وإنما هَدًّا لقوى النفس الشهوانية .. حتى تقوى النفس الملكوتية .. فتسيّرُ الجسم على شرع الله ﷻ وعلى نهج المصطفى ﷺ . فالنيَّة هنا اختلفت بالكلية !! ... فالعابد يصوم لأخذ ثواب الصيام، لكن العارف يصوم ليعين نفسه على كسر الشهوة، وعلى حَدِّ الرغبات الجامحة في النفس، لتعلو همَّته فيما عند الله ﷻ:

﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ (٦٠:القصص)

ولذلك ركَّز بعضهم وهو يجاهد في هذا المقام على: "أن يقلل"، ولم يقولوا بترك الطعام ــ بل بالتقليل، لأن ترك الطعام بالكلية يجعل الإنسان يخرج عن السوية، وقد يحدث له هوسٌ عقلي، لكن التقليل بمعنى إذا كان يأكل ثلاثة أرغفة في الوجبة يجعلهم اثنين ونصف، وبعد ذلك رغيفان، وبعد ذلك رغيف ونصف، وبعد ذلك رغيف واحد، وهكذا حتى أن بعض الصالحين قالوا في ذلك: ((لأن أنقص من عشائي لقمة واحدة أحب إلي من قيام ليلة))[٦]. أي: إذا قدرت على نفسي، وخفضت وجبة العشاء لقمة، فهو أحسن من قيام ليلة، لأنه ربما يكون القيام شهوة للإنسان، لكن عندما يقلل الطعام فإنه بذلك يكون صاحب عزيمة، وخاصة إذا قام من الطعام وهو يشتهيه ... وهل كان سيدنا رسول الله يحتاج إلى طعام؟ لا ... لكنه كان يأكل ليعلمنا كيف نأكل، ويشرب ليعلمنا كيف نشرب، وهو كان في مقام: (أبيت عند ربي فيطعمني ويسقين).

[٦] تعريف الأحياء بفضل الإحياء، كتاب عوارف المعارف.

وغيرهم من الصالحين ... ديوان الصالحين مليء بهؤلاء الرجال الذين ملكوا نفوسهم، ولم تملكهم نفوسهم، فتصرفوا فيها بأمر الواحد المتعال ﷻ، ولذلك قالوا: ((الرجل من مَلَكَ نفسه، وليس من ملكته نفسه)).

فكانوا يتفنَّنون في علاجها ... حتى تصل إلى الاقتداء بسيد الأنام فيما ورد عنه: (أنه كان يأكل ما وجد). ودعوني أسألكم سؤالاً أزيدكم به بياناً .. يا إخواني خبروني بالله عليكم ... إذا جلست للطعام مَنْ الذي يأكل من أعضاءِك؟.

هل هو الفم والأسنان واللسان والشفتان؟ أم هي المعدة؟ أم هي النفس؟

النفس هي التي تأكل، فعندما تنظر إلى الطعام وتشتهيه النفس .. فكل الأعضاء تتحرك، وتبدأ في الأكل .. ولكن عندما تنظر إلى الطعام ولا تشتهيه .. هل هناك أي عضو يكون قابلا للتحرك؟!! كلا .. فلا اللعاب ينزل، ولا الفم يفتح .. لأن النفس هي التي تحرك الأعضاء .. ولذا إذا كنت مريضاً أو حزيناً أو مهموماً فإن نفسك تعزف عن الطعام، ولا تجد عندك ميلاً له ... فالأكل من النفس!!

فيظل العبد يجاهد نفسه حتى يصبح الطعام عنده مثل الدواء ... يداوي به داء الجوع، كما قال الصالحون: ((الطعام علاج لمرض الجوع))، فلا تدخل معدتك إلا ما يسير بدنك، وما زاد عن ذلك يخزنه جسمك .. المعدة تكبر، والبطن يضخم ويسمن الإنسان ويمرض ... وكلنا يعرف أن السمنة التي هي سبب كل أمراض العصر.. فلا يأكل السالك المجاهد نفسه عن شهوة...، وإنما يأكل ليسدَّ داء الجوع، لأنه منشغل بالكلية بربه ﷻ، ولسان حاله يقول:

جُعنا فأطعمنا اليقين إلهنا واسقِ الجميع محبَّة المختار

فهو يريدك أن تأكل اليقين، تأكل من معارف القرآن، والعلوم الإلهية، والأسرار الربانية، وهذا سرُّ الآية القرآنية:

﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا ﴾ (٦٢:الكهف)

فالإشارة الروحية في الغداء هنا من سيدنا موسى ليست للحوت والطعام، وإنما هي إشارة التشوق لغذاء الروح والعلم اللدني بلقاء العبد الصالح، غذاء من الحقائق الربانية التي تقيت النفس وتجعلها تهيم في هذه الجمالات، ولا تمل من عشق هذه الكمالات، ويكرمها الله ﷻ بهذه الهبات، وتلك العطاءات.

فلا بد – يا إخواني – من التقليل من الطعام والشراب!! ولا تعلو الحياة الروحانية إلا بذلك، ولذا لزم أن يكون الإنسان السالك المجاهد لنفسه نصيبٌ وافرٌ في عبادة الصيام. اسمع له ﷺ بماذا أجاب أصحابه – لما سأله أحدهم أن يأمره بما ينفعه: {قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، مُرْنِي بِأَمْرٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهِ، قَالَ: (عَلَيْكَ بِالصِّيَامِ فَإِنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ)}[٧].

فمن يريد أن يبلغ مقاماً عند الله لا يكتفي بصيام شهر رمضان وحسب، بل ينبغي – مثلاً – أن يصوم ستة أيام من شوال، أو يصوم الاثنين والخميس كالحبيب ﷺ، أو على الأقل يصوم ثلاثة أيام من كل شهر .. وهو الحد الأدنى، قال ﷺ: {صومُ شهرِ الصَّبْرِ وصوم ثلاثةِ أيَّامٍ من كُلِّ شهرٍ صومُ الدَّهْرِ}[٨]. وإذا أكل؛ لا يأكل إلا عن جوع – كما قلنا عن حالهم الراقي في الأيام الأول: {نَحْنُ قَوْمٌ لا نأكلُ حتَّى نَجُوعُ وإذا أكلنَا لا نشبع}[٩]. ولذلك ليس هناك رجل صالح سمين، فشيخ الإمام الجنيد ﷺ كان خاله وهو السري السقطي ﷺ كان يقول:

شكوت لها الحُبَّ قالت كذبتني ... فما لي أرى منك العظام كواسيا
ولا حُبَّ حتى يلصق العظم بالحشا ... وتسكت حتى لا تجيب مناديا

[٧] عن أبي أمامة الباهلي ،سنن النسائي الصغرى ،..وانظروا إلى صدقهم في الإتباع ..{قال: فكان أبو أمامة لا يلقى إلا صائماً هو وامرأته وخادمه، فإذا رئي في داره دخان بالنهار قيل: اغتراهم ضيف}.
[٨] عن أبي هريرة ﷺ – السنن الكبرى للبيهقي.
[٩] السيرة الحلبية ، وسيدنا محمد ﷺ للشيخ رشيد رضا.

فيسوقون الدليل من الإنسان الذي يحبُّ امرأةً ومشغولٌ بها! هل تكون لديه رغبة للطعام؟ أبداً!! فما بالكم بمن يحبُّ الله تعالى ويريد أن يقبل عليه بكل جوارحه ومشاعره؟!! ويلزم بابه في انكسار وخشوع؟!! ... فهذا يلزمه الجوع.

وقبل أن نترك هذا الباب من أبواب المجاهدات، وقبل أن يبدأ أحد بالتطبيق والإكثار من الصيام وقطع الأنفاس والأيام، ننبه ونقول: أيها المقبلون على الصيام، ويا من تريدون التقلل من الطعام، اعلموا أن هناك صومٌ للعدد ... وصوم للمدد.

أما الصوم الذي للعدد فهو صوم للأجر والثواب، فمن صام جسمه كتب له الأجر، ومن أطاع الله مع صيامه بالجسم والجوارح عظم أجره عند الله ﷻ. أما الصوم الذي للمدد فهو صيام أهل الجهاد لبلوغ الغاية والمراد، والدخول في عداد أهل القرب والإمداد، وهذا أشار الله إليه في كتابه بقول القائل منهم (٢٦:مريم):

﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾

فهي صائمة، وصيامها عن كلام الأناسي، فمع من تتكلم؟!! .. مع أهل الملأ الأعلى، أو من سمت روحانيتهم فتشبهوا بهم، أو أشبهوهم فأصبحوا أرواحاً علوية ربانية تسكن في أجساد آدمية، .. تتحرك ظاهراً بين الناس.. والقلب والروح حقائق سائحة وهائمة في ملكوت ربِّ الناس – بلا كدر ولا التباس ولا احتباس!!

فبداية الصيام لمن أراد رضاء الملك العلام – أولاً: الصوم عن اللهو بكل أنواعه التي تلهي العبد المجاهد عن غايته أو تلفته عن مقصوده، حتى قال الله لنا :

﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (٩:المنافقون)

وحتى قال الإمام الداراني ﷺ منبهاً على الفتن التي تدخل القلوب خلسة: ((كل ما شغلك عن الله – حتى ولو مالٌ أو ولدٌ – فهو عليك مشئوم))[١٠].

[١٠] حلية الأولياء ، وتفسير روح البيان وغيرها .

فشغلك بمالك أو ولدك وزوجك مشروع، بل وظاهره أنت به مأمور...ولكن شغل قلبك بهم مذموم .. ومطلوب منك أن تطهر قلبك منه، ولذا أخبر ﷺ في الحديث: (أن أعدى أعدائك زوجتك وولدك ومالك ونفسك)!، هذا إن شغلوك عن الله، واستعبدوك أو استعملوك فيما لا يرضي الله، أو يقطعك عن السلوك السوي!!..

فبداية السلوك تصوم عن اللهو... ولا يعدُّ السالك في طريق القوم إلا إذا تحقق صومه عن اللهو أولاً .. ثم يرقى فيصوم عن اللغو، ولا يثبت قدمه في أول طريق أهل جهاد النفس إلا إذا استطاع أن يصوم عن اللغو في كل وقت وحين .. ولذا قالوا ونبهوا على حديث المصطفى الذي يخاطب طلاب العُلا: {إذا صُمْتَ فَلْيَصُمْ سَمْعُكَ وَبَصَرُكَ، وَلِسَانُكَ عن الْكَذِبِ وَالْمَآثِمِ، وَأَذَى الْخَادِمِ وَلْيَكُنْ عَلَيكَ وَقَارٌ وَسَكِينَةٌ وَلَا تَجْعَلْ يَوْمَ فِطْرِكَ وَيَوْمَ صَوْمِكَ سَوَاء}[11].

فهل يحلُّ له شيء من هذا في فطره؟ بالطبع لا، ولكنه يجاهد نفسه في الصيام عن اللغو حتى يصبح صائماً بباطنه .. أي: بحقيقة سلوكه حتى ولو كان مفطراً بظاهره، فيصبح عن اللغو صائماً في جميع أنفاسه؛ لأن أحرص ما يحرص عليه العبد في حياته أنفاسه التي يتنفسها في هذه الحياة .. فإن النفس الواحد أغلى من الدنيا كلها!!.

فالصيام عن اللغو هو بداية صيام أهل الجهاد، ولذا قالوا: إذا تمنَّعت عليك نفسك، وعَسُرَ عليك قيادها في طريق الجهاد، فعليك بنصيحة سيد العباد لتصل إلى المراد، وتكون من أهل الجهاد: {أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلى خَطِيئَتِكَ}[12] .. وبيتك أي: قلبك، فتعكف على تطهيره وإصلاحه وتنظيفه، وتخليته وتعميره، وعندها يمكنك الدخول على الصيام عن السهو! وما أدراك ما هو!

فالصائم عن السهو، لا يسهو لحظة عن مولاه، إن كان في نوم أو في يقظة، أو في شأن من شئون الدنيا أو الآخرة أياً ما كان، سرُّ قوله تعالى (٣٧:النور):

---

[11] شعب الإيمان وفضائل الأوقات للبيهقى ، قاله جابر بن عبدالله.

[12] عن عقبة بن عامر ، جامع المسانيد والمراسيل ، (أبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب)

﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾

فهناك الصيام عن اللهو.

ثم الصيام عن اللغو.

فالصيام عن السهو.

وهذه هي مراحل الصيام التي يقطعها السالكون في طريق الجهاد، بالتقليل من الطعام واستخدام روشتة الصيام، لكبح جماح النفس والقرب من الملك العلام.

ثم يجاهد العبد الصادق في صيامه ليصل إلى مقام الإحسان .. فالإيقان، فالمعية، فالعندية، فاللدنية، فمقعد الصدق.

فالصيام من أجل رؤيته كما قال الحبيب ﷺ: {صُومُوا لِرُؤيَتِهِ وَأفْطِرُوا لِرُؤيَتِهِ، فإنْ غُمَّ عليكُم فأكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبانَ ثلاثينَ}[١٣].

صوموا من أجل أن يَمُنَّ عليكم برؤيته ﷻ، ولا فطر لكم إلا بعد تحقق الرؤية، فإن صعب عليكم الوصول لذلك؛ فأديموا الصيام ونوّعوا الجهاد، حتى تصلوا إلى المراد، ويكون جزاؤكم هو ربُّ العباد .. كما قال الحديث مبشراً أهل الجهاد: {كُل عَملِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إلا الصَوْمُ هُوَ لي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ}[١٤].

فأنا جزاء الصائمين، فأشهدهم جمالي وكمالي، وأمتعهم بقربي ووصالي.

ولذا قال تعالى في سر الصيام: ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا ﴾، فلم يقدر على جهاد نفسه!! ﴿ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾، أو مازال مجاهداً فى السفر إلى ربه: ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾، أى فليستديم الجهاد وليكثر منه ليقهرها على مراده.

فإن شق عليه ذلك وعسر: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ﴾، فليفتح باباً آخر من أبواب الجهاد؛ بالصوم عن شهوة المال وحب كنزه .. فليتصدق: ﴿ فِدْيَةٌ طَعَامُ

[١٣] متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، مشكاة المصابيح .
[١٤] عن أبى هريرة ، صحيح البخارى ومسلم

مِسْكِينٍ ﴾ (١٨٥:البقرة)، ولتفتح باب النفقة على المحتاجين وإطعام المساكين لوجه رب العالمين .

ولذلك ختم الله آيات الصيام بمن وصل إلى أرقى المقامات، فطلب الله وسأل عن الله وصام عن كل مَا ومَنْ سواه!! ... قال الله تعالى لنبيّه ﷺ ولنا :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ (١٨٦:البقرة)

فالذي يسأل عن الله قِلَّةٌ قليلة !! .. وهم المصطفون من خلق الله، الذين جاهدوا أنفسهم في ذات الله ليدوم أنسهم بربهم ولا يشغلهم عنه شاغل.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا بفضله وببركة نبيه ﷺ منهم ... إنه مجيب الدعاء.

ثانياً: الإقلال من الكلام

لأنه لا يوجد سالك في طريق الله ﷻ يتحدث باستمرار، كأنه طاحونة تدور، فكيف يكون سالكاً ؟! .. فالسالك لا يخرج من فمه كلمة إلا إذا وزنها بنور قلبه، وبشرع ربه، فإذا أذن له القلب: (استفت قلبك)، ووافق عليها الشرع، أخرجها. وإلا كتمها ولم يبدها... لماذا؟!! لأنه يعلم أن الكلام عمل:

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (١٨:ق)

سيدنا أبو بكر يقول:"كنا نتعلم الصمت كما تتعلمون الكلام" وقد قال ﷺ: {أَرْبَعٌ لا يُدْرَكْنَ إلا بِتَعَب: الصَّمْتُ وَهُوَ أَوَلُ العِبَادَةِ، وَالتَّوَاضُعُ، وَكَثْرَةُ الذِّكْرِ، وَقِلَّةُ الشَّيْءِ}[١٥].وسيدنا رسول الله ﷺ، كان يعطيهم محاضرات في الصمت، والإمام أبو العزائم ﷺ قال:

والصَّمْتُ مِعرَاجٌ وجُوعُكَ طُهْرَةٌ والصَّمْتُ رَفْرَفُ حضرة التَّوابِ

[١٥] رواه الحاكم والطبرانى.

الصمت معراج لله ﷻ... لأنه إذا صمت اللسان، وغضَّ البصر، وكفَّ السمع هام القلب، وساحت الروح في ملكوت حضرة السبوح ﷻ، وقد قال سادتنا الصالحون ﷺ وأرضاهم: ((مَنْ عَدَّ كلامَهُ مِن عمله، قلَّ كلامُهُ)).

وقد قال رسول الله ﷺ: {النَّاسُ ثَلاثَةٌ: سَالِمٌ، وَغَانِمٌ، وَشَاحِبٌ، فَالسَّالِمُ: السَّاكِتُ، وَالْغَانِمُ: الَّذِي يَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالشَّاحِبُ: النَّاطِقُ بِالْخَنِى، وَالْمُعِينُ عَلَى الظُّلْمِ}[16].

وقال بعض الحكماء: إن لسان المؤمن وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم بشيءٍ تدبره بقلبه، ثم أمضاه بلسانه. وإن لسان المنافق أمام قلبه، فإذا أراد أن يتكلم بشيءٍ أمضاه بلسانه، ولم يتدبره بقلبه.

ألا تدرون أن معظم الكبائر والمصائب من اللسان!! فالكذب وشهادة الزور، والسبُّ والشتم واللعن، والغِيبة والنميمة، كله من اللسان، فقد قال ﷺ: {إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان، أي تقول: اتق الله فينا، فإنك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا}[17].

فإذا قفل الإنسان باب اللسان، فملَكَ عنان نفسه دخل في قوله ﷺ: {من وقي شرَّ قبقبة البطن، وذبذبة الفرج، ولقلقة اللسان، فقد وقي الشرَّ كلَّه}[18].

فهذا هو التدريب العملي الذي يتدرب عليه السالك في طريق الله ﷻ ... أنه لا يتكلم إلا إذا كان سيرضي من حوله ويرضي حضرة ربه.

سيدي مكين الدين الأسمر ﷺ وأرضاه – تلميذ سيدي أبي الحسن الشاذلي ﷺ وأرضاه – وكان رجلاً ترزيًّا، وكان من الأبدال، والترزي يجلس الناس عنده يتحدثون، فسأله إخوانه: ماذا تفعل؟ قال: إني أجلس مع ربِّي قبل غروب الشمس، فاستحضر ما

[16] أخرجه الطبرانى عن حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ.
[17] أخرجه الترمذى عن حديث أبى سعيد الخدرى.
[18] أخرجه أبو منصور الديلمي عن أنس.

تكلمت به طوال يومي، فأجدها بضع كلمات، لا تزيد عن العشر، فما وجدتُ فيها من خير حمدتُ الله، وما وجدتُ فيها غير ذلك استغفرتُ الله عليها.

وهذا اقتداء بالصادقين عندما سمعوا حضرة النبي يقول: {إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ قَدْ أُعْطِيَ زُهْدٍا فِي الدُّنْيَا وَقِلَّةَ مَنْطِقٍ فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّنُ الْحِكْمَةَ}[19].

فطلاب الحكمة العلية، الذين دخلوا مدرسة الحكمة الإلهية، ما سماتهم؟ وما علامات جهادهم ... يجاهدون ليقللوا كلامهم .. ليأخذوا الحكمة:

﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (٢٦٩:البقرة)

فالحكمة تأتي لمن؟ لأهل الصمت عن اللغو وعن الكلام إلا فيما يفيد، ولو كان الكلام لدرس أو تعليم حكمة فلا مانع، وكان ﷺ لا يتكلم في ما لا يعنيه، ولذلك كان ﷺ يقول: {مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ}[20].

كان ذلك من حسن الإسلام، فكيف بحسن الإيمان أو الإيقان؟ فالعبد إما أن يشغل نفسه بالله أو أي ذكر لله، أو يتفكر في مخلوقات الله حتى يتشبه برسول الله ﷺ الذي كان لا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، فالكلام الذي يأتي من وراءه ثواب يتكلم به. هذا وأنتم تعرفون أنه ﷺ وصف حتى قبل الرسالة بأنه: {ليسَ بِفَظٍ ولا غَلِيظٍ ولا صَخَّابٍ بالأسواقِ}[21].

قال مولانا الإمام أبو العزائم ﷺ: ((ومن فضائل تقليل الكلام أو الصمت أنه يجعل الإنسان دائما مرفوع الرأس))، فلا أحد يعاتبه على كلمة قالها، أو أنه شتمه أو اغتابه فيخرج من الدنيا وليس لأحد من الخلق عليه تبعة، لأن الله قد يغفر للعبد ما

[19] (هـ حل هب) عن أبي خلاد، (حل هب) عن أبي هريرة رضى الله عنهما.
[20] رواه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ (الأربعين النووية). عن حسين بن على مسند الشهاب
[21] عن عطاء بن يسار سنن البيهقى الكبرى ورواه البخارى فى الصحيح عن محمد بن سنان عن فليح بن سليمان.

يكون بينه وبينه سبحانه وتعالى، أما ما يهلك العبد فالذي بينه وبين غيره من الخلق، ولذلك عندها يقول الله تعالى: (وعزتي وجلالي لا تدخل الجنة حتى ترضي خصماءك، من كان له حق عند فلان فليخرج).

فهذا الذي يطلق للسانه العنان، ولا يستطيع أن يضبط فرامل اللسان كم له من خصماء يوم القيامة يتوجب عليه إرضاءهم! فهذا حتى وإن كان ليله كله قائماً، ويومه كله عبادة، لن يكفيه ذلك!! وأنتم تعلمون جيداً من هم المفلسون؟ هم الذين تركوا اللسان على الفاضي وعلى المليان.

فعلامة الصالحين؟.. الصمت والإقلال من الكلام، وهذا يحتاج إلى جهاد عتيد وجهد شديد، ولا بد أن يعود الإنسان نفسه ألا يتحدث إلا بعد وزن الكلام بنور قلبه، وموافقته لشرع ربه ... وإذا تكلم يكون الكلام في أي شيء؟. {لا يتكلم في غير حاجة}.

يا إخواني إذا كانت أوصاف المؤمنين – وليس المحسنين – في كتاب الله، واسمعوا:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (١-٣:المؤمنون)

ما اللغو؟

العلماء والخبراء في كتاب الله وفي اللغة التي نزل بها كتاب الله قالوا:

اللغو هو الكلام الذي لا يفيد ولا يضر ... فالله لا يمدحهم بالبعد عن الغيبة ولا النميمة ولا السبِّ ولا اللعن .. لأن كل هذا حرام محقق، يجب على كل مسلم أن يمتنع عنه، لكنه يصفهم بالبعد عن اللغو ... كالكلام في السياسة الذي لا يفيد والكلام في الكورة، الكلام في كل أحوال الناس اليومية بغير تخصيص.

المؤمن إذا كان عن اللغو معرضاَ، في ماذا يتكلم؟ .. وفي أي شيء ؟.. قال ﷺ: {رَحِمَ اللهُ عَبْداً قَالَ خَيْرَاً فَغَنِمَ أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ}[٢٢].

الكلمة التي سأقولها، إذا كانت ستتحول لي بشيك على رصيدي أقولها، وإلا فلا، وبدل ما أتكلم مع البشر أتكلم مع رب البشر ﷻ الذي يقول لعبده: {أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ}[٢٣]. نسمع حُكم المحكمة الإلهية في هذا الأمر (١١٤:النساء):

﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾

حكم من هذا يا إخواني؟ ... هذا حكم أحكم الحاكمين!! .. ولنسأل رسول الله ﷺ : من أبغض الناس إلى الله وأبعدهم عنك يا سيدي يا رسول الله؟ قال: {وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إلى اللهِ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي – من يا رسول الله؟ الثَّرْثَارُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ}[٢٤].

فالثرثار: الذي يرغي كثيراً، والمتشدق: الذي يخرج كلامه من شدقيه، ولا يكفُّ عن الكلام، المتفيهق: الذي يعمل نفسه فقيهاً في كل شيء .. ولذلك كرر رسول الله ﷺ مقالته، وأعلن بغضه للمكثرين من الكلام؛ وقال فيهم قولة تقطع القلوب، فقال: {شِرَارُ أُمَّتِي الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدقُونَ الْمُتَفَيهِقُونَ}[٢٥]. فكل هذه الصفات الذميمة المهلكة تأتي من إطلاق اللسان بالكلام فيثرثر ويزيد فيتشدق! ويتفيقه! وكله من إطلاق اللسان.

---

[٢٢] هناد والخرائطى فى مكارم الخلاق عن الحسن مرسلاً

[٢٣] رواه ابن ماجة ، واللفظ له وابن حبان فى {صحيحه} ورواه الحاكم فى (المستدرك) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

[٢٤] عن أبي ثعلبة الخشنى – صحيح ابن حبان

[٢٥] (خد) عن أبي هريرة ، جامع المسانيد والمراسيل.

فعلى الإنسان أن يقلل من الكلام، فإن كان ولا بد فعليه أن يفكر قبل أن يتكلم، لأن الكلمة إذا خرجت منك ملكتك، وإذا منعتها الخروج ملكتها، فقد تخرج منك كلمة تتسبب لك في أن تذل رقبتك، أو تحنى قامتك لمن لا يساوي! لأنها كلمة في حق إنسان أي ما كان قدره عندك!، وقد تتعرض للصغار من أجلها! قال القائل سائلاً رسول الله ﷺ: {قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا النَّجَاةُ؟. قَالَ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ}[٢٦].

فالمؤمن لا يتكلم إلا إذا كان واثقاً أن ما ينطق به في صحيفة حسناته:

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق:١٨)

وليس قولاً فقط، وإنما قول وعمل. فالمؤمن يا إخواني لا ينطق إلا إذا كان نطقه في ميزان حسناته. ولذلك قال ﷺ في حديث آخر: {طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله}[٢٧].

ثالثاً: الإقلال من المنام

والإقلال من المنام: بمعنى أنه لا ينام إلا إذا غلبه النوم، وهذا حال الصالحين لإستثمار وقتهم:

فابذل الوقت فى نوال نفيس بجهادٍ لَمَحْتَ فيه رضاه

يحرصون على الوقت حتى لا يضع منهم هباءً، والإمام أبو العزائم ﷺ وأرضاه من ضمن تأويله لقول الله (٢٦، ٢٧:الإسراء):

﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۝٢٧ ﴾

[٢٦] عن عقبة بن عامر رضى الله عنه ، رواه الترمذى وابن أبى الدنيا والبيهقى.
[٢٧] رواه البراز عن حديث أنس رضي الله عنه.

قال: إن من أعظم التبذير، أن يبذر الإنسان أنفاسه ووقته فى غير طاعة الله ﷻ.

وأنتم تعلمون أن تبذير المال سهل، لأن المال يذهب ويأتي ويمكن تعويضه، لكن الأنفاس التى خرجت من الإنسان كيف يعوضها مرة أخرى؟!! .. والأيام التى مضت كيف يرجعها؟!! .. فأعظم التبذير ... وأخطر التبذير ... أن يبعثر الإنسان الأيام والأنفاس فى غير طاعة الله ﷻ، لأنه لا يستطيع أن يعوضها أبداً، ولذا عمد أهل جهاد النفس لهذه الخصلة، ونظروا وتفكروا كيف يقللون من المنام، ويستثمروا أوقاتهم فى القرب من الملك العلام؟!! فوجدوا أن من أكرم الخصال وأجلِّ الأعمال أن يُصَلُّوا بالليل والناس نيام ....

وهنا وجب الحديث عن قيام الليل!! .. وما أدراك ما قيام الليل!! ((فمن لم يكن له فى بدايته قومة لم يكن له فى نهايته جلسة)) – كما قال الأولون!! إذ كانوا يأخذون بالحظ الأوفر من قوله تعالى (١٧:الذاريات):

﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾

وقوله علت ذاته وتباركت أسماؤه وصفاته (١٦:السجدة):

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾

فمن أراد أن يكون مع حبيبه ﷺ، لا بد ان يدخل نفسه فى الطائفة التى معه .. وهى معية خصال وفعال، وليست معية مكان أو زمان، فى قوله (آخر سورة المزمل):

﴿ إِن رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾

فمن أراد ذلك .. لا بد أن يكون له حظٌّ وافر من الوقوف في طابور التجليات والفيوضات، والهبات والتنزلات، والأسرار والأنوار .. ألا وهو طابور القيام؛ قيام الليل الذى يعشق الوقوف فيه كلُّ الصالحين والصالحات على مر الزمان والأوقات. قال ﷺ:

{عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قربة إلى الله، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد}[٢٨].

وهكذا كل سالك صالح أو طالب فى طريق القوم فالح، لا بد له من أن يفرض القيام على نفسه ليزكيها ويطوعها فى طريقهم، ويقول لها: أن يا نفسُ، إن كان حبيبك ﷺ قد فرض عليه القيام، وقام ﷺ هو وأصحابه حتى انتفخت أقدامهم، قالت السيدة عائشة ﷺ لمن سأل عن رسول الله ﷺ وقيامه فى الليل: {أخبرينا عن خُلُقِ رسول الله ﷺ. قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإنه خُلُقُ رسول الله ﷺ.

فأردت أن أقوم ولا أسأل أحداً عن شئ حتى ألحق بالله، فعرض لى القيام فقلت: أخبرينا عن قيام رسول الله ﷺ، قالت: ألست تقرأ (يا أيها المزمل)؟ قلت: بلى، قالت: فإنها كانت قيام رسول الله ﷺ، أنزل أول السورة فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حتى انتفخت أقدامهم، وحبس آخرها فى السماء ستة عشر شهراً ثم أنزل، فصار قيام الليل تطوعاً بعد أن كان فريضة}[٢٩]، فكذا يا نفس، أوجب عليك القيام لتكونى مع رسول الله ﷺ سيد الأنام وصحبه الكرام.

يا نفس، ألم تسمعى خطاب الله تعالى لنبيّه داوود عليه السلام – فى حق أصحاب القيام بين يدى الملك العلام والناس نيام؟!! قال له مولاه: (يا داوود، إن لي عباداً يحبونى وأحبهم، ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم، ويذكرونى وأذكرهم، وينظرون إلى وأنظر إليهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عن ذلك مقتك. قال: يا رب، وما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى غنمه (الظلال إشارة إلى الأجسام)، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها، فإذا جنَّهم الليل، واختلط الظلام، وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا لى أقدامهم، وافترشوا لى وجوههم، وناجونى بكلامى، وتملقوا إلى بإنعامى، فبين

[٢٨] سنن الترمذى عن بلال بن رباح ﷺ
[٢٩] سنن الدارامي وسنن أبى داوود وغيرها عن سعد بن هشام

صارخ وباك، وبين متأوه وشاك، بعينى ما يتحملون من أجلى، وبسمعى ما يشكون من حبى!! أول ما أعطيهم: أن أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم. والثانى: لو كانت السموات السبع والأرضون وما فيهما فى موازينهم لاستقللتها لهم. والثالث: أقبل بوجهى عليهم .. أفترى من أقبلت بوجهى عليه أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟ }[30].

يا نفس، ألم تعلمى أن الماشى فى حوارى وأزقة المدينة المنورة أيام رسول الله ﷺ وأيام السلف الصالح ﷺ بالليل، كان يسمع فى مسيره أينما توجَّه دويًّا فى مساجدها وفى بيوتها كدويِّ النحل، لأن الجميع قد افترشوا أقدامهم ووقفوا بين يدى الملك العلام .. يناجون مولاهم وربهم بالأسحار، وقت السحر الذى علمهم الحبيب: (**ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعونى فأستجيب له؟ من يسألنى فأعطيه؟ من يستغفرنى فأغفر له؟**)[31]

يا نفس، وقت الفتوحات ووقت التنزلات للصالحين والصالحات هو وقت السحر، حتى قيل: إن سيدنا يعقوب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام عندما قال له أبناؤه: يا أبانا استغفر لنا،

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾

(٩٨:يوسف)

قيل: أجَّل الاستغفار إلى وقت السحر[32] ... أى سوف أستغفر لكم فى وقت السحر، لأنه الوقت الذى جعله الله لعباده الصالحين، يفتح لهم فيه خزائن الجود الإلهى وخزن الكرم الربانى ... وهذا يا نفس، لا يكون للنائمين ولا للغافلين ولا للساهين، وإنما

[30] أحياء علوم الدين ، وتعريف الأحياء بفضائل الإحياء

[31] رواه مالك والبخارى ومسلم والترمذى عن أبى هريرة ﷺ.

[32] ورد عن عبدالله بن مسعود وآخرين ، تفسير الطبرى وكثير غيرهم كمثل التهجد وقيام الليل لابن أبى الدنيا.

هو للقائمين والذاكرين، وللراكعين وللساجدين، وللحاضرين وللتالين، وللمتوجهين بالكلية لربِّ العالمين ﷻ – فى هذا الوقت والحين .

يا نفس، ألم تعلمى أن رسول الله ﷺ قال لمن أراد المكانة يوم القيامة: { إن فى الجنة غرفاً يُرى باطنها من ظاهرها، وظاهرها من باطنها – أعدَّها الله لمن؟! وذكر منهم – وقام بالليل والناس نيام}[٣٣] .

يا نفس، بالقيام تدخلين الطائفة التى مع الحبيب، وتنضمين إلى الركب المهيب:

﴿ إِن رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ (٢٠:المزمل)

فمن هؤلاء المختارون المخصوصون؛ منهم من كان يقوم الليل كله بركعتين كسيدنا عثمان بن عفان ﷺ يقرأ فيهما القرآن كله، ومنهم من كان يطيل فيه السجود كسيدي على زين العابدين بن الإمام الحسين ﷺ حتى سمى السجَّاد، وقد عرف بهذا اللقب مثله الكثيرون مثل: على بن عبد الله بن عباس الذى كان يصلى ألف ركعة فى الليلة[٣٤] ، ومنهم من كان يصلى كل ليلة ثلاثمائة ركعة كالجنيد ﷺ.

وحتى النساء – يا نفس: فمنهم من كانت تصلى الليل كله، فتصلى فى كل ليلة ألف ركعة مثل السيدة رابعة العدوية، التى سئلت عن ذلك، قالت: وذلك ليفتخر بى رسول الله ﷺ يوم القيامة!! فكانت ﷺ تصلى الليل، فإذا قرب الفجر نامت نومة خفيفة ثم تقوم وتقول: { يا نفس، كم تنامين؟ وكم تقومين؟ يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا صبيحة يوم النشور!!}. فكان هذا دأبها حتى ماتت .

وأقول لكم إخوانى القراء الكرام، لا تتعجبون وتستبعدون كيف كانوا يصلُّون هذا العدد الهائل من الركعات ... ولا كيف كان عثمان ﷺ يقرأ القرآن كله فى ركعتين!

[٣٣] الطبراني في الكبير عن أبي موسى الأشعري ﷺ – بلفظ: {لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وقام بالليل والناس نيام} .
[٣٤] السيرة الحلبية

والليل محدود ساعاته؟!! فإن الله يطوى الزمان إذا شاء لأناس، كما طوى لغيرهم المكان!! اكراماً من الله وإنعام!! ولا حجر على فضل الملك العلام.

وقد اشتهر بقيام الليل كله وصلاة الصبح بوضوء العشاء الأخيرة قوم كثيرون؛ منهم الإمام أبو حنيفة، وسعيد بن المسيب، وفضيل بن عياض، وأبو سليمان الدارانى، وحبيب العجمى، ومالك بن دينار، ورابعة العدوية، وغيرهم كثيرون[٣٥].

وإذا كان الإنسان متعباً فى وقت من الأوقات، فقد سهل إمامنا أبو العزائم ﷺ العمل للمتعبين والمثقلين فى هذه الأيام، فقال ﷺ: ((تستطيع أن تصلى قيام الليل مجزءً؛ فتصلِّى أربعاً بعد العشاء، وتصلِّى أربعاً قبل النوم، وتنام على وضوء كسُنَّة الحبيب ﷺ، وتقوم قبل الفجر بقليل تصلِّى أربعاً، ثم تصلى الشفع والوتر)) ... هل هذا العمل عسير يا أحباب؟

أظن أن هذا عمل سهل ويسير لمن أراد أن يسلك هذا المسلك، ويدخل فى معية الحبيب ﷺ، فإن هذه المعية لا نستطيع وصفها، ولا الإحاطة بالدرجات التى جعلها الله ﷻ لأهلها، ولا بالعطاءات التى خصَّ الله ﷻ الأحباب المندرجين فيها، فإنه عطاءٌ بغير حساب !....

ولكن المهم المداومة يا أحباب .. المداومة .. المداومة .. ففيها السِّرُّ!!. ويَسَّرَ الحبيب ﷺ للمديمين فقال: {مَنْ نام عن حزبه أو عن شئ منه، فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كتب له كأنما قرأه من الليل }[٣٦]. حتى يداوم .. هذا إن كان قراءة، ولكن لو فاتته ليلة ؟ أى قيامها .. فليؤدها من وقت حل النافلة إلى صلاة الظهر، يؤدى فيها الصلاة لله ﷻ التى يداوم عليها، حتى يكون من المديمين للعمل لله الذين يحبُّهم الله جلَّ فى علاه .

[٣٥] تفسير حقي لإسماعيل البرسوسى
[٣٦] عن عمر بن الخطاب سنن الترمذي وصحيح مسلم

رابعاً: الإقلال من مخالطة الأنام

وهو الأمر الرابع .. فإذا أكرم الله ﷻ عبداً .. وقام لدعوة الخلق .. فإن الله ﷻ يؤيده ويسدده، وهذا ليس لنا شأن به، بل نجاهد أنفسنا فقط .. والإمام أبو العزائم ﷺ وأرضاه قال لنا فى هذا الكلام:

ولـيس الكـلُّ مطلـوباً لهـذا ولكن خُصَّ لـبعض أفرادٍ قليلـة
فَـدَارِى أهـل عصـرك واجتنبـهم وواصلهم على قدر الضـرورة
فمنكـرهم يسـئ ومَـنْ يسـلِّم فقرِّبـه ولا تـأمن شـرورة

فلابد أن يقلل السالك من مخالطة الناس، وعليه أن يخالط الصالحين المتقين والمشتغلين بطاعة رب العالمين ﷻ. روى صدقة بن أبى عمران قال: { أتيت أبا ذر فوجدته فى المسجد محتبئاً بكساء أسود وحده، فقلت: يا أبا ذر، ما هذه الوحدة؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: {الوحدة خير من جليس السوء، والجليس الصالح خير من الوحدة، وإملاء الخير خير من السكوت، والسكوت خير من إملاء الشّر}[٣٧].

إذاً علىَّ أن أكون مع الصادقين أو الصالحين، أو أن أجلس وحدى! أو أن أصمت، أما أن أكون مع الغافلين فقد حذرنا الله منهم (١١٩:التوبة):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾

لكن الأنام الذين شغلهم كله فى الغيبة والنميمة وقيل وقال، نتركهم بالكلية، لأن الله ﷻ قال فيهم (٦٨:الأنعام):

﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

[٣٧] رواه الحاكم والبيهقي في الشعب عن أبي ذر رضي الله عنه – جامع المسانيد والمراسيل.

لأنهم ظلموا أنفسهم!! .. فعدم مجالستهم أفضل، بل نجالس الصادقين كما قال رب العالمين، وهم عباد الله المتقين، الذين وقتهم ثمين فى طاعة الله فى كل وقت وحين، وحتى لو كان الغافلون هؤلاء من أقرب الأقربين وأنا أعلم أنهم من الغافلين اللاهين، ولابد لى من الزيارة .. فلتكن لحظات لكى لا أقع فى المحظورات، فلكى يزور الإنسان قريبه أو قريبته يقع فى الغيبة والنميمة!!، لا وألف لا!!

اجعل الزيارة لحظات ... أما صلة الأرحام الأولى فهى صلة الأرحام النورانية التى تصلنا بالحضرة المحمدية، وذلك لأن لنا رَحِمَان، الأول رحم جسمانى، والثانى رحم نورانى، وهو الذى به التزكية وبه التعلية وبه التصفية وبه الترقية، أما الرحم الجسمانى فكما سمعتم!!، فصلة الأرحام إن تأتت منها الآثام، فلتكن على قدر الضرورة والسلام!!.

لماذا هذا الحرص على الوقت يا إخوانى؟!! لأن المؤمن رأس ماله .. ماذا؟ هو وقته أو أنفاسه أو عمره! أنفاسك هى التى تفصل بينك وبين مولاك!، وهى معدودة بالنفس دخولاً وخروجاً لا تزيد ولا تنقص!! .. فالمؤمن أحرص الناس على وقته، لأن أنفاسه إما فى قربة إلى الله، وإما فى عمل صالح فى رضاء الله، وإما فى غفلة!! حفظنا الله!! أو فى مقت أو فى ذنوب أو آثام، وهذا شر دائم والعياذ بالله ﷻ فى الدنيا ويوم الزحام!!. وقد قال سيدى الإمام الشافعى ﷺ عن خطر الوقت: ((صحبت الصوفية سنتين، فتعلمت منهم كلمتين: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، ونفسك إن لم تشغلها بالحقِّ شغلتك بالباطل))[٣٨].

فنحن فى كل يوم جديد عندما يطلع النهار ويمرُّ اليوم، أكون قد قطعت يوماً وليلة من عمرى، وقربت من الله مقدار هذا اليوم .. فماذا قدمت؟!! إذاً شعار الصالحين هو: "الحرص على الوقت"، ولذلك تجد أن بعض الصالحين كانوا يفرون من الخلق من أجل هذه الأشياء، فمنهم ضعيف كان يفر إلى جبل! ومنهم من يفر إلى الصحراء!

[٣٨] مدراج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم الجوزيه.

أما الأقوياء فيفرون من الخلق وهم بينهم!! يفرون من أحوال الخلق وهم وسطهم!! ولكن ليس معهم!! لماذا ؟ .. لأنه مشغول بالله. وللإمام أبى العزائم رأىٌ وجيه فى قول الله تعالى (٢٦، ٢٧:الإسراء):

﴿ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾

قال: هو التبذير فى الأنفاس، فالمال يزيد وينقص! لكن النَّفَسَ إذا خرج فلن يعود!! فإذا بذَّرت نَفَساً واحداً فى غفلةٍ أو بُعدٍ .. فلن يرجع مرة أخرى بأى ثمن كان!! فهذا أشد التبذير!! لأن أنفاسك أغلى من الجواهر، وأنفس من كل النفائس.

ولتعلم قيمة الوقت – ولا تضيعه فى الغفلة مع الخلق عن الحق!! – فإن سيدى كمال الدين الأخميمى ﷺ زار سيدى عبد الرحيم القنائى ﷺ – فى مسجده المدفون به – يوماً، وكانوا ﷺ مكاشفين؛ يرون أهل البرزخ عند الزيارة، ويحدثوهم مشافهة، فبعد أن تكلم سيدى كمال الدين مع سيدى عبد الرحيم، قال له: أوصنى يا سيدى، فقال: ((يا بُنى، لا تضيّع نفساً فى غير ذكر الله، فأنا فى روضات عالين كما ترى، ومع ذلك أقول: يا حسرتا على ما فرطُّتُ فى جنب الله)).

وما العجب فى ذلك! أوليس النبى ﷺ قد أباح لنا السِّرَّ الذى يتحسر من أجله أهل الجنة !! أتعرفون على ماذا يتحسرون ؟!!كما أخبر الحبيب: {ليس يتحسر أهل الجنة على شئ إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله ﷻ فيها}[٣٩].

ولذلك فإن أحرص ما يحرص عليه الإنسان فى هذه الحياة هو الوقت!! ولذا قال الإمام الشعرانى فى العهود المحمدية – شارحاً سبب هذه الحسرة والندامة يوم القيامة: {يتحسرون .. وذلك لأنهم لا يجالسون الله تعالى فى الجنة إلا بقدر مجالستهم له فى ذكره فى دار الدنيا، وإن كانت فى الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا}[٤٠].

[٣٩] (طب هب) عن معاذ رضى الله عنه – جامع المسانيد والمراسيل
[٤٠] العهود المحمدية للإمام عبد الوهاب الشعرانى رضي الله عنه

قال الإمام الجنيد ﷺ: ((لو أَقْبَلَ عبدٌ على اللهِ ألف سنة، ثم أعرض عنه لحظة، كان الذى فاته أكثر مما حصل له)).

فانظروا أيها السالكون المجاهدون أنفسهم فى طاعة مولاهم، لا تستصغروا النَّفَسَ الواحد فى الغفلة، لأن النَّفَسَ فى شُغلٍ بأهل الباطل يضيّع منك دهراً كاملاً أقبلت فيه على مولاك. وما أجمل وأوضح قول أبى الفرج بن الجوزى ﷺ فى تنبيهه للسالكين ألا يضيِّعوا نفيس أنفاسهم فى الغفلة عن ربهم:

{أيها الشاب، أنت فى بادية، ومعك جواهر نفيسة، وتريد أن تقدم بها على بلد تبيعها فيه، فاحذر أن يلقاك من يغرُّك بالهوى – أى: يضحك عليك مستغلاً هواك! – فيشترى ما معك بأقل ثمن – أى: يجعلك تضيّع أنفاسك الغالية بمشاغل الدنيا الفانية – فتقدم البلد فترى الرابحين فتفقع أسفاً، وتبكى لهفاً، وتقول: يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله، هيهات أن يرد الأسف ما سلف}[41].

ورسول الله ﷺ يحذر من الذى يضيع وقته فى مخالطة الخلق بلا رابط ولا حاجز .. فهى المصيبة الكبرى، واسمعوا عن رسول الله ﷺ النصيحة أيها الناس!! لأن هذا يصير من المفلسين النادمين يوم القيامة، ولا مرد! فالإكثار من مخالطة الأنام تجرُّ إلى الغيبة والنميمة، والمشاحنات والبغضاء، والحسد وأكل الحقوق، والكثير غيرها:

{المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح فى النار}[42]. كما قال ابن عمر ﷺ: { نهانا رسول الله ﷺ عن الغيبة، وعن الاستماع إلى الغيبة}[43]،

[41] تنبية النائم الغمر على مواسم العمر لأبى فرج الجوزى

[42] وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، رواه مسلم والترمذى وغيرهم ، الترغيب والترهيب

[43] عن ابن عمر فى مجمع الزوائد ، وأخرجه الطبرانى .

أظن هذا يكفى ويزيد لكل عاقل لبيب ... إذاً يا أحباب علينا الإقلال من مخالطة الأنام إذا كانت المخالطة تجرنى إلى الذنوب والآثام، أو على الأقل بها غفلة عن الله ﷻ ، وتمثل قول القائل الإمام أبى العزائم رضى الله عنه :

واغنم الوقت فى نوال نفيس بجهاد لَحت فيه رضاه

خامساً: ذكر الله والتفكر على الدوام

ولابد أن يلازم الإنسان ذكر الله ﷻ على الدوام، وهذه الوسيلة الرابعة وقد يجعلها بعض أطباء القلوب كوسيلتين أو دواءين، وهذا لا مانع منه، فالذكر والفكر مرتبطان ومتشابكان، فلا بد أن يكون لسانك رطباً بذكر الله ﷻ، وباطنك مستغرقاً بالفكر والتدبر فيما تذكره، وملاحظة معانيه وأنواره وأسراره.

وقد كان ﷺ يذكر الله على كل أحواله، ويديم الفكر والتفكر فى آلاء الله وآياته، فلا بد لك أيها السالك المجاهد لنفسه والطالب لرضاء ربه ... لا بد لك أن تديم الذكر والفكر والتفكر والتدبر فى آيات الله وفى خلق الله، حتى يهتدى السالك بقدرة الله إلى نور الله المنبث فى كون الله، ويدخل فى قول الله (٥٣:فصلت):

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

ولا يوجد شئ يستطيع أن يتشبث به العبد للقرب من الله كذكر الله ﷻ، وهذا طبعاً بعد الفرائض، لأن الفرائض أمر مفروغ منه ولا فصال فيه، ويجب أن نقوم كلنا بها كما أمر الله وبين رسوله ﷺ ... ولكن طلاب المزيد من الحميد المجيد كالذى ذهب لرسول الله يريد شيئاً من النوافل يغنى عن الكل، فقال ﷺ عندما قال له الرجل: {يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علىَّ، فأخبرنى بأمرٍ أتشبث به، قال: (لايزال لسانك رطباً بذكر الله)}[٤٤].

[٤٤] عن عمر بن قيس الكندى عن عبدالله بن بشلر مسند الإمام أحمد وسنن البيهقي الكبرى

وقد يقول قائل: أحياناً أذكر الله وأنا مشغول – وهو ذكر مع غفلة، نقول حتى ولو كان .. درِّب نفسك على الحضور شيئاً فشيئاً، ولكن لا تتركه .. أذكر وأذكر لأن سيدى أحمد بن عطاء الله السكندرى قال: {لا تترك الذكر لوجود الغفلة فيه، فرُبَّ ذكرٍ مع غفلة ينقلك الله فيه إلى ذكرٍ مع حضور، وذكرٍ مع حضور ينقلك الله فيه إلى سماع الذكر من المذكور} ... قال الله مبشِّراً الذاكرين .. ويا له من جزاءٍ تهون دونه الأحداق والأعناق (١٥٢:البقرة):

﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾

ولذا ورد عنه ﷺ فى جزاء الذاكرين الذين يذكرهم رب العالمين قوله ﷺ : {ما عمل آدمى عمل أنجى له من عذاب الله تعالى، من ذكر الله تعالى. قالوا: ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد، إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع. (ثلاث مرات)}[٤٥].

مَنْ يا رسول الله مِنْ أصحابك لهم المكانات العالية؟ مَنْ؟!! روى عنه ﷺ: {كان رسول يسير فى طريق مكة، فمر على جبل يقال له جمدان، فقال: (سيروا هذا جمدان، سبق المفردون. قالوا: وما المفردون يارسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً)}. رواه مسلم ولفظ الترمذى: (يا رسول الله: وما المفردون؟ قال: المُستَهتَرون بذكر الله، يضع الذكر عنهم أثقالهم فياتون الله يوم القيامة خفافاً)[٤٦].

ذهب بعض الشباب الذين انضموا إلى الخوارج فى عصر الصحابة، وكان هؤلاء الشباب يهتمون بتلاوة القرآن والصيام والتهجد بالليل، وقد سألوا عن عبادات أصحاب سيدنا رسول الله، فذهبوا إلى امرأة سيدنا أبو الدرداء، وقد قال فى شأنه رسول

[٤٥] عن معاذ بن جبل رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح ، مجمع الزوائد
[٤٦] عن ابى هريرة ص فى التغريب والترهيب وغيرها كثير ، المفردون والمستهترون هم المولعون بالذكر ، المداومون عليه . لايبالون ما قيل فيهم ، ولا مافعل بهم

الله ﷻ – وكان اسمه عويمر: {عويمر حكيم أمتى}[٤٧]، فقالت لهم زوجته: ((لم تكن عبادته كعبادتكم، ولكنه كان يجلس يتفكر)).

فإذا قلل الكلام مع الأنام ولم يتكلم مع الملك العلام، شغل نفسه بالفكر والتفكر كما قال ﷺ فى هذا المقام: {تفكر ساعة يعدل من عبادة سنة}[٤٨]، {ولا عبادة كالتَّفكر}[٤٩].

الساعة هنا تعنى: اللحظة، أى أنه إذا تفكر لحظة فله عند الله كعبادة سنة نهارها صيام وليلها قيام، وكان الإمام أبو العزائم ﷺ وأرضاه يقول: ((لحظة فكر بيقين خير من عبادة سنين)).

لأنه بها ينقشع عن القلب الحجب، ويزول عنه الران، ويتنزل له الفضل من حضرة الرحمن ... لأنها العبادة الوحيدة التى تخشع بها القلوب، ويتقرب بها العبد من حضرة الرحمن والنبى العدنان ﷺ، ولن تبلغ العُلا من أول الطريق، ولكن بالصبر والعمل تبلغ الأمل وتحصل الهدف. فمن ذا الذى يصلى ويجد الخشوع من أول صلاة لله ؟!! .. بل لا بد وأن يصلى أولاً ويُخشِّع نفسه ويجاهد نفسه إلى أن يصل إلى مقام الخشوع، وهذه هى الصلاة العظيمة التى يحبُّها الله ﷻ.

إذا على المؤمن أن يذكر الله على كل حال، ويتفكر فى كل وقت وآن ... يذكر ويتفكر؛ إن كان قائماً ، أو قاعداً ، أو جالساً ، أو على أى حال كان.

فبم تذكر الله يا أخى .. يا من تريد أن تستعين بذكره ؟

تذكره بتلاوة القرآن، تذكره بالإستغفار والمداومة على الأوراد والأذكار، وتذكره بالصلاة على النبى العدنان ... ونفصِّل وبالله التوفيق .. فنقول:

---

[٤٧] (الحارث)عن أبى المثنى المليكى مرسلاً .

[٤٨] أخرجه أبن حيان فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة بلفظ: (ستين سنة) بإسناد ضعيف

[٤٩] أبو بكر بن كامل فى معجمه، وابن النجار عن الحارث بن على رضى الله عنه.

ذكر الله بتلاوة القرآن

وهو من أعظم القربات وأجل العبادات، ولذلك قال حبيبى وقرة عينى ﷺ: {أفضل عبادة أمتى تلاوة القرآن}[٥٠].

التلاوة ذكر، وسماع القرآن ذكر، فإن تلوت فإنه ذكر، وإذا كنت لا أستطيع التلاوة وأسمع مسجلاً .. فإن ذلك أيضاً ذكر، قال ﷺ: (السامع والقارئ فى الأجر شريكان)، وفى رواية: (العالم والمتعلم شريكان فى الخير)[٥١].

لكن المهم عندما أسمع القرآن – إن كان فى البيت، أو فى السيارة، أو فى العمل – أن أعمل بقول حضرة الرحمن:

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾

لماذا؟!!

﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٢٠٤:الأعراف)

وكلمة (لَعَلَّ) فى القرآن ليست بمعنى الترجى كما تقول اللغة، ولكنها بمعنى التأكيد. إذن عندما نسمع القرآن يجب أن ننصت ونمتنع عن الحديث، وعندما يأتى مَنْ يكلمنى وأنا أستمع القرآن يجب أن أقول: صدق الله العظيم، وأغلق المذياع أو المسجل إلى أن ننتهى من الحديث.

وقد يقول قائل: إنه كلام الله دع المذياع يعمل، من الذي يسمعه هنا؟!! هل الجن والملائكة الحاضرون فى المكان أكثر أدباً منى فى سماع كلام ﷻ؟! لا .. لأن سماع القرآن يستلزم منى أن أنصت، وليس هذا وحسب لكن أكون مع الآيات، فإذا كانت آية فيها دعاء ذكره الله .. أردده وأدعو به، أو أقول آمين، أو اللهم استجب يارب العالمين. وإذا كانت آية ترغب فى الدعاء علىَّ أن أدعو، وعندما أسمع القارئ يتلو قوله .. (٦٠:غافر):

[٥٠] (هب) عن النعمان بن بشير رضى الله عنه (جامع الأحاديث والمراسيل)
[٥١] أبو إمامة ، الترغيب والترهيب .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾

ماذا أفعل ؟ أدعو الله بما يفتح على به – بلا تكلف – لأن ذلك هو رزق الله لى الذى به فتح باب الإجابة إن شاء الله، ولذلك فإن سيدى أحمد بن عطاء الله السكندرى ﷺ – يقول فى حكمه العظيمة: ((إذا فتح لك باب الدعاء فقد فتح لك باب الإجابة)).

وإذا جاءت آيات تتحدث عن الجنة أقول: "اللهم اجعلنى من أهلها"، وإذا جاءت آيات تتحدث عن النار أقول: "اللهم احفظنى من النار وشرورها وعذابها". وبهذا أكون متجاوباً مع كتاب الله مع السماع.

والمواقف التى وقف عندها حضرة النبى يجب أن أكون يقظاً عندها، فإذا جاءت آية سجدة علىَّ إذا كنت على وضوء عند سماعها أن أتجه للقبلة وأسجد، أما إذا كنت على غير وضوء أو على سفر ولا أستطيع الإتجاه للقبلة، علىَّ أن أقول: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر). وإذا كنت فى واجب عزاء ولا مكان يصح فيه السجود أيضاً أقول: (سبحان الله، والحمد لله، ولا اله الا الله، والله أكبر). وإذا قرأ القارئ قوله ﷻ فى آخر سورة التين:

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨ ﴾

أقول فى نفسى كما قال النبى: (بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين)، وإذا قرأ آخر سورة القيامة:

﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠ ﴾

أقول: (بلى قادر) ... وهكذا أتجاوب مع آيات الله ﷻ .

وإذا كنت سأتلو القرآن بنفسى .. هنا يستحسن أن أقرأ فى مصحف مفسر، فالقرآن موجود فى المتن وبجواره تفسير موجز بسيط للكلمات التى لا أعرف معناها، ومنها سبب نزول الآيات التى لا أعرف لماذا نزلت، لأن أول فرض علىَّ بعد الإيمان

بالله: أن أتعلم كتاب الله، وأعرف معناه، وإذا لم أعرف معناه أرجع للهامش المفسر، فالعبرة ليست بعدد الآيات التى أقرأها، ولكن العبرة بالعظة والذكرى، فالله ينادى ويقول (١٧:القمر):

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

ولم يقل فهل من تالٍ؟!!، كما لم يقل سبحانه: أفلا يقرأون القرآن؟!!، ولكنه قال:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (٨٢،النساء)

فالمهم ليس فى القراءة ولكن المهم التدبر، ولذلك ورد فى الحديث الشريف: {لا خير فى قراءة إلا بتدبر، ولا عبادة إلا بفقه}[٥٢].

وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها: ((لأن تقرأ سورة: "إذا زلزلت الأرض زلزالها" بتدبر، خير لك من أن تقرأ القرآن كلَّه من أوله على آخره هذرمة}

وهذرمة أى يقرأ ولا يعى ما يقرأ – كما يقرأ الكثيرون فى رمضان.

ومن يقرأ ويتدبر القرآن فى رمضان فهل سيأخذ أجازة من التلاوة يعد رمضان كما أخذها الآن ؟! من أين اعتمدت هذه الأجازة ؟! هل نسيت أن القرآن سيأتى يوم القيامة ويشكو إلى الله ﷻ ؟! قال تعالى فى (٣٠:الفرقان):

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾

كيف يكون مهجوراً ونحن نضعه على طاولة الصالون، ونعلقه فى السيارة، ونضعه فى غرف النوم وعلى المكاتب؟! نضعه زينة وديكور .. لكن هل فتحناه وقرأناه وفهمناه، والمهم والأهم بعد ذلك هل عملنا به؟ .. والهجر ليس هجر التلاوة، ولكن هجر العمل بالقرآن ...

[٥٢] للدار قطنى فى الأفراد عن ابن عمر رضي الله عنهما ، جامع المسانيد والمراسيل

إذن علىَّ عندما أسمع أو أقرأ القرآن أن أتمعن وأتذكر وأتدبر فى معانى القرآن، ومن حكمة القرآن أن الله ﷻ يسَّره للإنس جميعاً وللجان، فلو أن هناك رجلاً أميًّا ويقرأ القرآن بقلب حاضر وتمعن، فإن الله ينزل عليه علوماً لم يقرأها أستاذ فى علم التفسير .. وهذا هو كلام الله (١٧:القمر):

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾

يسرناه: أى سهلناه، فأى مؤمن يقرأ بقلب سليم، ويتمعن ويتدبر، لابد وأن يفهم، وقد يكون بعضكم رأى ذلك!! ... فلو أن هناك حتى من لا ينطق العربية ومسلم – كما نرى فى الحرمين – ويريد أن يقرأ القرآن كل ما عليه أن يفتح المصحف فيجد أنه يقرأ بلسان عربى مبين!! .. وعندما تسمعه يهئ لك أنه يتكلم العربية!! .. لكن عندما تتكلم معه تجد أنه لا يعرف العربية!! .. إذن كيف يقرأ كتاب الله؟!!! ... إنه التيسير الذى يسَّره العلىُّ الكبير ﷻ.

قد يقول قائل إنه يقرأ ولا يفهم، أبداً .. لأنك تجده يقرأ والدموع تسيل من عينيه، وهذا معناه أنه منفعل بالكلام ويفهم ما يقرأ، إذن لماذا فَهِمَ وهو لا يجيد العربية ؟!! إنه تيسير ربِّ البرية لآياته القرآنية لكل المسلمين قارئين وغير قارئين، وكانت حكمة إنزال الله ﷻ القرآن على النبيِّ وهو أمِّيٌّ أن يعرِّفنا أن القرآن ليس للقارئين، وليس لأهل اللسان الفصيح، ولا لأهل النحو والصرف واللغة العربية، لأن كل هذه الأشياء جاءت بعد نزول القرآن.

إذن فهم القرآن لأى مؤمن فى قلبه يقين، ويقرأه ويتمعن ويتدبر فى آياته، أو وهو يسمعه. وكان السلف الصالح يملكون موهبة ربانية – وهى موجودة ولا زالت – فأحيانا كان يأتى رجل كريم العينين ولا يحفظ القرآن، فيقول لآخر: أريد أن أسمع كلام الله .. فيقرأ له الرجل، وأثناء القراءة كان الرجل أحياناً ينسى آية، فيقول له الرجل كريم العينين: لقد أخطأت، فينسى مرة أخرى ويردُّه الرجل .. فيقول المبصر: هل تحفظ القرآن؟ .. يقول: لا، .. فيقول: كيف عرفت إذن أنى قد أخطأت؟!! .. يقول: وأنت تقرأ .. كنت أري نوراً، فعندما انقطع هذا النور عرفت أنك قطعت الآيات!! .. وهذه

الأمور موجودة فى كل زمان ومكان!!، وهذا لأنهم كانوا وما زالوا يسمعون القرآن كما قال الرحمن (١٢:الحاقة):

﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾

ليست هذه الأذن الحسية .. لأن اسمها: (أذن صاغية) إذا أصغت للعلم والحكمة، أو: (أذن لاهية) إذا استمعت إلى الأغانى والملاهى ... لكن (الأذن الواعية) هى أذن القلب، وهى التى تستمع إلى كلام الله ﷻ.

إذن ذِكْرُ اللهِ أعظمه وأبهجه هو: (كلام الله) .. وقد تسهل الموضوع الآن!! فإن لم أستطع التلاوة علىَّ أن أسمع، فإذاعة القرآن لا تنقطع فى ليلٍ ولا نهار، والمسجلات موجودة!! وتسجيلات القراء المشهورين العظماء موجودة وليست مفقودة، والمهم أن أجيد السماع والاستماع .

فلا بد أن يكون للسالك المجاهد لنفسه ورد تلاوة لكتاب الله " فاقرءوا ما تيسر منه". فلا يغلق المصحف ليلة العيد ويتركه حتى يأتى رمضان القادم، فليس هذا من صنع العبيد الذين يأملون فى الرقى والعلو عند الحميد المجيد ﷻ، فلا بد ان يكون له كل يوم تلاوة للقرآن، والرسول ﷺ وضح هذا الموقف فقال: { من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين }[٥٣].

أى الذين تخرج حسناتهم بالقنطار إلى الله ﷻ، ومعناه أن الواحد لا تقل قراءته فى اليوم والليلة عن مائة آية، .. ومائة آية كم تستغرق فى القراءة؟!! لا تزيد عن عشر دقائق ! لكن المهم أن تكتحل العين بكتاب الله ... وأن تفتح الآذان بسماع كلام الله .. وأن تحرك اللسان بالنطق بكلام الله .. فهذا تحصين لهذه الأعضاء من كل داء فى هذه الحياة ...!!!!

[٥٣] سنن أبي داوود وصحيح ابن خزيمة وغيرها عن عبد الله بن عمر بن العاص رضي الله عنهما.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ أى يوم يصبحون ولا يطالعون فى كتاب الله، أو لا ينظر أحدهم فى كتاب الله .. يظل مكتئبا طوال هذا اليوم !! لماذا ؟ لأنه لم يستفتح بكتاب ربه ﷻ .... فلا بد أن يكون لك وردٌ قرآنى دائم كما كان لهم !!. فقد كان كتاب الله هو سميرهم وأنيسهم وزادهم فى قيامهم وفى إحياء ليلهم ، وقد أورد بدر الدين العينى فى كتابه عمدة القارئ عن أحوالهم الفائقة ما نصه:

{ وكان أبى بن كعب يختمه فى ثمان، وكان الأسود يختمه فى ست، وعلقمة فى خمس، وروى عن معاذ بن جبل: "وكانت طائفة تقرأ القرآن كلَّه فى ليلة أو ركعة". وروى ذلك عن عثمان بن عفان وتميم الداري، وكان سليم يختم القرآن فى ليلة ثلاث مرات، ذكر ذلك أبو عبيد، وقال صاحب التوضيح: أكثر ما بلغنا قراءة ثمان ختمات فى اليوم والليلة، وقال السلمى: سمعت الشيخ أبا عثمان المغربى يقول: ابن الكاتب يختم بالنهار أربع ختمات، وبالليل أربع ختمات}.

وكانوا رضى الله عنهم يراجعون أحوال قراءتهم لكتاب الله مع بعضهم ليستزيدوا من كل خير وهبه الله لأحدهم، ولم يكونوا يعيبون على بعض، أو يرى أحدهم نفسه على الآخر لعمله، اسمعوا لهذه المحادثة العظيمة بين سيدنا أبى موسى الأشعرى وسيدنا معاذبن جبل ﷺ أجمعين، إذ سأله معاذ: {كيف تقرأ القرآن يا أبا موسى؟ قال: فى صلاتى وعلى راحلتى، وماشياً وراكباً، وقائماً وقاعداً، وعلى فراشى أتفوّقُهُ تفوقاً – أي: أجزأه أجزاءاً، أو أقرأه شيئاً فشيئاً – قال أبو موسى: كيف تقرأ يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل لأستعين به على آخره، وانى لأرجو من الأجر فى نومتى ما لا أرجو من الأجر فى قيامى}. وفى رواية البخارى: {قال معاذ: أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئى من النوم، فأقرأ ما كتب الله لى، فأحتسب نومتى كما أحتسب قومتى}[٥٤].

[٥٤] عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه، شعب الإيمان وصحيح بن حبان، وصحيح البخارى وغيرها.

وانظروا لهذا الفقه الراقى فى عبادة الله!!! .. كانوا إما لا يتركون لحظة إلا فى عبادة صادقة، وكانوا إذا ناموا يرجون بنومهم الذى يستعينون به على القيام أكثر مما يرجون فى قيامهم.

فكل لحظة من وقتهم؛ مشياً أو ركوباً أو حركة أو سكوناً عبادة لله .. حتى نومهم!! فهو نور فائق، وأجرُ سابق، وعبادة عالية لها جزاء من الله، لا يعلم مداه سواه!!. وكانت السيدة العابدة الشهيرة حفصة بنت سيرين أخت مُحَمَّد بن سيرين تقرأ كل ليلة نصف القرآن، تقوم به فى الصلاة وكانت تقوم فى مصلاها بالليل، فربما طفئ المصباح فيضئ لها البيت حتى تصبح!! وكانت من عابدات أهل البصرة .. وكان أخوها ابن سيرين إذا أشكل عليه شئ من القرآن قال: اذهبوا فسلوا حفصة كيف تقرأ؟ وكانت تقول: ((يا معشر الشباب، خذوا من أنفسكم وأنتم شباب، فإنى ما رأيت العمل إلا فى الشباب))[٥٥].

هذا نذر يسير وشذر قليل من عمل بعض من الرجال والنساء الأولين والسابقين!! فماذا عملتم أنتم أيها الشباب؟ ... ماذا عملتم أنتم يا مَنْ توفَّر لكم المال والصحة، بل والوقت عند الكثيرين؟!!.

والكل يدعى أنه شيخ فى جهاده لنفسه وأستاذ نبيل ؟ فأين الدليل ؟!!!

ذكر الله بالإستغفار والمداومة على الأوراد والأذكار

والمداومة على الأوراد والأذكار من أفضل الوسائل التى يستعين بها السالك على جهاد نفسه، ونحن نبين ونقول لمن يظن أن هذه الأوراد والأذكار دائماً نوافل!! وما أدراك أنك أكملت الفرائض!! ألم ترّ إلى حضرة النبى الذى قال له ربه:

[٥٥] روح البيان لإسماعيل البرسوسي

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (٢:الفتح)

إلا أنه كان يقول حاثًّا للأمة كلها من أولها إلى أخرها: { إنى أتوب إلى الله واستغفره فى كل يوم مائة مرة }[٥٦].

أما سالكو الطرق هذه الأيام!! فيقولون لا نحتاج إلى الاستغفار بالمرَّة !!، وإن استغفر الواحد منهم يوماً .. يتركه بعدها أسبوعاً أو شهراً!!. أما نحن فنحتاج إلى ستر العيوب بالاستغفار، والدوام عليه لحضرة علام الغيوب، لأنك عندما تقرأ فى دواوين الصالحين تجد أنهم يتفننون فى الإستغفار لله، ولذا كثرت الصيغ الواردة .. يا إخوانى إنتبهوا إنما الدرجات بالمجاهدات ..

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٤٦:فصلت)

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ! فهو لا يريد أن يغير ما بنفسه ومع ذلك يريد أن يكتسب أنسه!! ويصبح من أصحاب التجليات والفتوحات، بلا مجاهدات .. ولا أوراد تلتزم .. ولا أذكار، كيف ذلك؟ ... لا يكون !

يجب أن نلتزم بالأوراد التى يعطيها الصالحون للمريد فى البداية وهى :

- أن يستغفر الله مائة مرة بالنهار ومائة مرة بالليل .
- ويقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحي ويميت بيده الخير وهو على كل شئ قدير مائة مرة بالنهار ومائة مرة بالليل. وسنفصل فى فضل ذلك لعظم قدر (لا إله إلا الله) .
- ويصلى على حضرة النبى مائة مرة بالنهار ومائة مرة بالليل ، وسنفصل فى ذلك أيضا لعظم قدر الصلاة على النبى فى إنجاح السالك فى قطع المسالك.

[٥٦] صحيح الألبانى

- ـ ويقول سبحان الله العظيم استغفر الله العظيم مائة مرة نهاراً ومثلها ليلاً.
- ـ وأن يكون له ورد يومى من القرآن .. على الأقل جزء

وهكذا يا إخوانى لأنهم قالوا : ((من لا ورد له فلا ورود له))، وقال ﷺ: {إذا أحب الله عبدا ألهمه الله ذكره }[٥٧].

فالذى يحبه الله يلهمه ذكره على الدوام، لأن المنافقين يذكرون، ولكنهم قال الله عنهم: ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ (النساء)

فذكر الله على الدوام يجب أن يكون رغبة فى القرب من الملك العلام ، وليس رياءاً ولا سمعة ولا شهرة ، وهل من يقعد فى جبل أو خلوة ، ويمسك بمسبحة ألفية ، ويذكر الله دائماً! يكون علامة على حب الله؟ .. نعم! هذا الذكر علامة على حبِّ الله ولكن على قدره! ولكن هناك حبٌ أعظم وأكرم، علامته؟ أن يذكر الله على منهج حبيب الله ومصطفاه الذى لم يترك العمل ولا الأهل ويقعد فى الجبل ، فكيف كان يذكر الله إذن ؟ ، قالت السيدة عائشة ﵂: كالن ﷺ يذكر الله على كل أحيانه :

فلكل لحظة ذكرها ، ولكل حالة ذكرها ، ولكل نازلة ذكرها ، والتقى النقى المجاهد نفسه على درب النبى الذى يذكر فى كل حالة بما يلائمها من بحر النبوة ، فسيدنا رسول الله كان من لحظة قيامه من النوم ، إلى أن يخلد إلى النوم ....يذكر الله .. ولكن كان كيف يذكر الله ؟

أكان يقول يا ودود! مائة ألف مرة ؟ أو يا لطيف ؟ أيذكر الله بثلاثة عشر إسما ؟ أم بسبع ؟ أم بخمس أسماء ؟ لا هذا ولا ذاك، ولكن كل حالة لها ذكرها الخاص ولها الفكر أو التفكر الخاص فى جميع الأحوال والأوقات.

وكان ﷺ يذكر بصوت عال ليسمع من حوله لكى يتعلموا .

[٥٧] وفى رواية أخرى لابن أبى الدنيا والبيهقى: (أكثروا ذكر الله على كل حال، فإنه ليس عمل أحب إلى الله ولا أنجى لعبده من ذكر الله تعالى فى الدنيا والآخرة).

ما الذى ضيَّع أولادنا وبناتنا ونسائنا ؟ أن الذى يذكر فينا يذكر فى سره ! فماذا سمعوا ! وممن سيتعلمون ؟ لكن الأئمة الأعلام قالوا : أن الحبيب كان يذكر بصوت عال ليُسْمِعَ كل من حوله ، حتى عند صلاته كان وهو راكع او ساجد يسبّح بصوت لكى يعرف ويسمع من خلفه ، كذلك كان يدعو بصوت مسموع ، فلو أن زوجتى جاهلة ورددت بجوارها هذه الأذكار، لحفظتها خلال شهر واحد ! وأولادى نفس النظام ، ولكننا لا نهتم بهذا ، ولو ذكرنا يوما ننسى شهرا !!!

بسم الله

ومن أفضل الجهاد بالذكر المداومة على "بسم الله" فهى عكَّاز المسلم فى كل مقاماته وأحواله ، فياحبذا لو عوَّدنا أنفسنا ومن حولنا على ذلك ، كلما أمسك أو رفع أوفعل أوترك أوكتب أى شئ يقول بسم الله ! بسم الله !

كيف نعلمهم ؟..بالحال! وبالفعل.. فلو قلت له قل بسم الله ، فربما لايقولها لكنه عندما يرانى ويسمعنى عند كل شئ أقول بسم الله ، بسم الله ، سيتعلم ، وسيقلدنى،فعند الطعام ، قل: بسم الله ، يكن فى الطعام بركة ، وكذا الماء عند نزوله من الحنفية ، قل :بسم الله ، فإن بسم الله فيه شفاء وبركة ، أى عمل سأعمله أنا ، أو زوجتى ، أو عيالى ، أقول قبله بسم الله ، يكون فيه البركة . والنبى ﷺ قال: {كل شئ لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر}[٥٨].

يعنى: ناقص البركة!، حتى لو أننى غير حافظ للأذكار، ألا أقدر على قول (بسم الله)؟!! .. فبسم الله أولا ، ثم الدعاء أيا ما كان!، عند الخروج من البيت ذكر، للذهاب للعمل أو الزيارة، يكون لذلك ذكر بسم الله ثم ذكرها الخاص، وإذا ذهبت للمسجد ذكر، فإذا دخلت ذكر وعند الخروج غيره، وإذا دخلت بيتك؛ يلزم الذكر، ففى كل حركة وسكنة يفعلها المسلم دعاء وارد عن إمام الرسل والأنبياء.

[٥٨] رواه ابن ماجة وابن حبان وابن ابى داود عن أبى هريرة

بعض هذه الأدعية – يا إخوانى – يعلمونه لأولادنا فى الروضة حاليا! أليس كذلك ؟ لكن كلها يجب ان يتعلمها السالك فى بداية سلوكه ، ويتحقق بها فى كل حركاته وسكناته ، فلا يمشى ، ولا يذهب ، ولا يجئ، إلا ولسانه ينطق بدعاء ورد عن سيد الرسل والنبياء، حتى الأكل والشرب له أدعية فى البداية وفى النهاية ، حتى النكاح، له دعاء ؟ ومن يدعو به ؟ هو وهى ، ولابد بصوت مسموع لنذكر بعضنا .

والإمام الشافعى ﷺكان من هديه فى مذهبه : أن الإمام يجهر بنيته مع أن محلها القلب ، لماذا؟ قال: ليتعلم من خلف الإمام ! لأن معظم الناس أميون ، فكيف يتعلمون ! ، ولذلك أيضاً كانوا يجهرون بختام الصلاة ، ليتعلم الناس ، مثلاً : سيؤذن!، لابد أن أؤذن أنا أيضا ! من الذى يؤذن ياإخوانى ؟ المؤذن ؟ أم كل المسلمين؟ بل كل المسلمين ، لأنه يؤذن ، وانت تردِّد، إذن كل المسلمين لحظة الآذان فى آذان.

آذكار الصباح والمساء

وهناك أذكارٌ ياإخوانى هى أذكار النوازل، هناك أيضاً أذكار الصباح والمساء ، ماذا يقول الإنسان بعد صلاة الصبح ، لكى يقيه الله من الآفات ؟ ويحفظه من الآمراض والعاهات ؟ ومن شر طوارق الإنس والجن ؟ الروشتة النبوية موجودة وكاملة ، والأدعية التى بعد صلاة الصبح ، ومثلها بعد المغرب ، فبعد الصبح يقول "أصبحت"وبعد المغرب يقول "أمسيت"، أو" أصبحنا"، و"أمسينا"للجماعة.

فالمداومة على هذه الأذكارباالليل وبالنهار هى ما يستعان به بقوة وعزم فى تزكية النفس، لكن أترك هذه الأدعية والأذكار ، وأمسك السبحة وأقول: (يا لطيف) مائة الف مرة ، هل أنا اهتديت بالسيد الأعظم عبد الله اللطيف ؟ واقتديت به ؟ لكى يفتح على اللطيف! بمجرد أن أنادى !.. يفتح لى ؟ لا...! لأن مفتاح الفتح هو الإقتداء بسيد الرسل والأنبياء ، ليس بالكلام ولكن بالإقتداء فهو سر الفتح ، ولذلك عندما

قالت السيدة عائشة " كان يذكر الله على كل أحيانه "، كيف؟ هذه الأذكار!، لأنه إذا قيلت هذه الأذكار فى أوقاتها هل سيكون هناك وقت فراغ عند الإنسان ؟ لا!

سرُّ "ما شاء الله لا قوة إلا بالله"

الواحد ينظر بعينيه ، فإذا نظر لإبنه أو ابنته أو لطعام أو أثاث فى البيت ، سيقول: " بسم الله ماشاء الله لاقوة إلا بالله " ، وكانت على لسان رسول الله على الدوام ، وإذا قالها الإنسان فقد حرَّز من رآه ، أو من ينظر إليه ببسم الله ﷻ .

ولذلك يقع المسلمون فى بعضهم الآن ، يقول أحدهم نظر فلان لابنى ، وحصل له كذا ...وهو محقٌّ! ، لماذا؟ .. لأن فلان هذا نظر وقد لايقصد الحسد ، ولكن لم يحرِّز أخاه بـ "بسم الله ، ماشاء الله" ، لا قوة إلا بالله " فلو تأسينا برسول الله ؟ هل سيكون هناك حسد موجود بيننا ؟...لا!

ولذلك قال الإمام أبو العزائم فى كتاب النور المبين: ((قد يصل العبد إلى حالة من الإيمان لا يؤثر فيه السحر ولا الحسد))، لأنه يحرِّز نفسه، فمن الجائز أن يكون الذى يحسد هو أنت!! كيف؟ سوف تنظر لشئ عندك ويعجبك! ولم تحرِّزه، فيحدث التأثير من القوى الغيبية للقوى الظاهرية، ولكن الذى يحمى من هذا كله هى روشتة العليِّ الكبير فى قوله تعالى (٣٩:الكهف)

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾

كم مرة يقولها المؤمن بالنهار؟ هو يحتاجها مئات المرات! لأنه ينظر على الدوام، والذى يقلُّ عن ذلك فأمامه جهاد شديد لكى يتابع السيد السند العظيم ﷺ ولا يكون غافلاً! فـ (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) على لسانه كلما نظر شيئاً أو أبصره .. ولكن الإنسان لا يردِّد باللسان فى غيبة القلب والجنان، لأن أذكار رسول الله تحرِّك القلب والفكر، لأن كل ذكر له حالة، والفكر يشتغل فيه.

إذن القلب لازم يكون حاضر لكى يأتى بالذكر المناسب، لكن عندما أجلس وأذكر " لا إله إلا الله " – مائة الف مرة – وعينى تنظر هنا وهناك!، فاللسان يقول والقلب مشغول!! لكن أذكار السيد الرسول ﷺ تقتضى حضور القلب، وجولة الذكر والفكر.

عندما يمشى الإنسان فى ساحة هذا الذكر بعد صفاء النفس وطهرة القلب، يبدأ الفكر، فتأتى له إرسال وأمواج من العلوم الإلهية والإمدادات الربانية، ويكون أساسها التفكر، ولذلك بداية العلوم الوهبية تأتى نتيجة الفكر بهذه الكيفية، لأنه عندما يتفكَّر الإنسان من الممكن أن ينسى من حوله ويذهب فى دائرة ثانية تماماً، يتولاه الولى ويلهمه بإلهامات نافعة ورافعة عندها، ويؤيدها له بنصوص فى كتاب ربِّ العالمين، وأحاديث صحيحة عن سيد الأولين والآخرين ﷺ.

لذلك مقرر المدرسة المحمدية لأهل المتابعة على الأذكار والأوراد بالصباح والمساء وكل الأحوال والأوقات هى هذه الأذكار، فمن أراد السلوك فليطالعها مثلاً فى كتاب: الأذكار للإمام النووى، أو عمل اليوم والليلة لابن السنى، أو ابن ماجة، أو كتبنا أذكار الأبرار، أو مفاتح الفرج، لكى يحفظها المريد بالتكرار والاستمرار!.

ولايغِّير لفظاً فى دعاء وارد .. لماذا؟ .. لأن رسول الله ﷺ عندما سأله أحدهم عن دعاء النوم ؟ فلقَّنه دعاءاً قال فيه: "وبنبيك الذى أرسلت"، فقال الرجل مردداً: (وبرسولك الذى أرسلت)، فقال له ﷺ: لا، قل: "وبنبيك الذى أرسلت".

وعندما نسمع ذلك أو نقرأه، ربما نقول كلمة "رسول" أشمل، لكن حضرة النبى يقول: لا، ليعلمنا أن لا نجتهد فى الدعاء الوارد، فهى أدوية لأدواء تتناولها كما وصف الطبيب الأعظم الذى علمه مولاه. فلو أن مفتاح الباب فيه خلل فى سِنَّةٍ واحدة، هل يفتح! لا،كذلك الأدعية! إذا أبدلت كلمة كأنك غيَّرت سِنَّةً فى المفتاح، وهذه هى مفاتح الفتح التى أعطاها له وسلمها له الكريم الفتاح ﷻ.

ذكر "لا إله إلا الله"

ومن ذكر الله ﷻ كذلك: (لا إله إلا الله)، قال سيدنا موسى: {يا رب، خصَّنى بشئ أذكرك به دون خلقك، قال: قل (لا إله إلا الله)، قال: يا رب، كل خلقك يقولون (لا إله إلا الله)، وأريد أن تخصنى بشئ من دون خلقك، فقال الله: يا موسى، لو كانت السموات والأراضين فى كفة، و (لا إله إلا الله) فى كفة، لرجحت كفة (لاإله إلا الله)}[٥٩].

فكلمة (لا إله إلا الله) أغلى وأعلى من السموات والأرض ومن فيهن، قال ﷺ: { أفضل ما قلت أنا والنبيون قبلى عشية عرفة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شئ قدير}[٦٠].

فإن قلنا لا إله إلا الله فبها ونعمت ، وإن قلنا الحى! يصح، والقيوم! يصح فإذا ذكرنا الله بـ (لا إله إلا الله) فإنه ذكر، وإذا ذكرنا الاسم الجامع: "الله" فغاية الذكر، وإذا ذكرنا بأى وصف لله من الكتاب أو السنة فإنها كلها ذكر .. (١١٠:الإسراء):

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾

[٥٩] كنز العمال للمتقى الهندى.

[٦٠] اسماعيل بن عبد الغافر الفارسى فى الأربعين عن على رضى الله عنه – جامع الأحاديث والمراسيل.

الصلاة على رسول الله ﷺ

ومن ذكر الله الموصل كذلك: الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ . من الذى أمرنا بالصلاة عليه؟ الله .. ولِمَ أمرنا ﷻ بالصلاة عليه؟ بين لنا الله تعالى أن الصلاة عليه ﷺ ليس معناها احتياجه إليها (٥٦:الأحزاب):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ ﴾

عندما يصلى الله وملائكته عليه هل يحتاج شيئاً من أى أحد آخر؟ لا .. فنحن المحتاجون! كيف نصلى يا رسول الله؟ أنكثر من الصلاة عليك؟،قال الحبيب الأعظم ﷺ: {أكثروا من الصلاة علىَّ فإنها نوركم على الصراط يوم القيامة}[٦١].

النجوم تخسف، والشمس تكسف، وكل شئ سينتهى .. والنور هناك سيكون:

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (٤٠:النور)

نور الأعمال الصالحات هو ما سيأتيك هناك، وهو الذى سيؤنسك فى القبر، أما الصلاة على النبى فهى من أعظم الأنوار يوم القيامة، وهى التى ستنير لك جسور الصراط، وتجعل مع المؤمنين قوة ربانية يعبرون بها هذه الجسور، كمرور البرق الخاطف، أو مثل الريح السريعة، ومنهم من يمر عليها مثل الخيل، ومنهم من يمر عليها ماشياً، والذى يضئ لهؤلاء جميعاً هو نور الصلاة على رسول الله ﷺ.

والصلاة على النبى هى مفتاح شفاعته، كيف ندخل الجنة؟!! قال الرسول ﷺ: {ما من أحد يدخل الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته}[٦٢]... إذن كيف سندخل؟!! ندخل بشفاعة رسول الله.

كيف نأخذ هذه الشفاعة؟!! بشئ سهل يسير!! .. قال ﷺ – واسمعوا الحديث واعملوا به، المهم المواظبة والمداومة والتفكر والاستحضار ليكون الحضور إن شاء الله:

[٦١] كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للمتقى الهندى

[٦٢] (طب) عن أسامة بن شريك رضي الله عنه .(جامع الأحاديث والمراسيل)

{من صلى على حين يصبح عشراً، وحين يمسى عشراً أدركته شفاعتى يوم القيامة}[٦٣]، {إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صَلُّوا علىَّ، فإنه من صلَّى على صلاة صلَّى الله عليه بها عشراً، ثم سَلُوا الله لى الوسيلة، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلَّت له الشفاعة}[٦٤].

وقد قال سلفنا الصالح: ((إن على المؤذن بعد أن ينتهى من الأذان، أن يصلِّى على النبِىّ)) من أجل أن يذكر الحاضرين والسامعين أن ينفذوا السُّنَّة التى أمر بها سيد الأولين والآخرين، ولذلك قال الإمام الشافعى ﷺ وأرضاه: ((ينبغى ويجب على المؤذن بعد انتهاء الأذان أن يقول على الأقل: وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم)).

وآخر ما نختم به من فضل الصلاة على النبى ﷺ هو الحديث المانع الجامع فى بركة الصلاة على النبِىّ وفضلها لو شغل العبد بها وقته كله: {كان رسول الله إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: يا أيها الناس، اذكروا الله .. اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، قلت: يا رسول الله، إنى أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتى؟ قال: ماشئت، قلت الربع؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير، قلت: فالنصف؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير، قلت: فالثلثين؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير، قلت: أجعل لك صلاتى كلها، قال: إذا تكفى همُّك، ويغفر لك ذنبك}[٦٥].

---

[٦٣] عن أبى الدرداء رواه الطبرانى بإسنادين

[٦٤] عن عبدالله بن عمروبن العاص صحيح مسلم

[٦٥] عن أبى بن كعب رضى الله عنه جامع المسانيد والمراسيل ، حم وعبد بن حميد وابن منيع حسن ، والروياني ك ، هب ، ص

الغاية من تزكية أو جهاد النفس

من يزكى نفسه هو من يجاهدها ليبلغ الكمالات فى الخصال الإلهية، والأوصاف النبوية، هم القوم الذين عشقوا كمالات الله، وهاموا فى أوصاف حبيب الله ومصطفاه، وأرادوا أن يكمِّلوا أنفسهم بهذه الخصال وهذه الأوصاف، ولذلك فجهاد النفس ميدانه الأساسى ليس العبادات، ولا المكابدات، ولا كثرة الأذكار، ولا ترداد آيات كتاب الله ﷻ، وإنما أساس الجهاد هو التخلِّى والتحلِّى، التخلِّى عن الأوصاف المذمومة، والتحلِّى بالأوصاف الحميدة .

وهذا هو مجمل التزكية أو الجهاد، ومن لم يفهم هذه الحقيقة تاه فى بادية الإلحاد، ولم يصل وإن فنى عمره فى الجهاد إلى المراد. لأن الجهاد مجمله: "التحلى بالتخلى بعد محوى لمحلى"، أن يفهم الإنسان ويعتقد ويعقد عزيمته على أن يبلغ مراتب القرب وليصل إلى الكمالات ، والكمالات هنا هى التجمل بأوصاف حبيب الله ومصطفاه، والتخلق بأخلاق الله.

ولا يمكن له أن يتحلى بهذه الكمالات، ويتحقق بهذه الكمالات، إلا إذا تخلَّى عن فطره المهملات، وأخلاقه التى لا تليق بهذه الكمالات، وعاداته التى ليست على نهج سيد السادات ﷺ..

أولاً : التخلق بأخلاق رسول الله ﷺ

فلا بد أن يجاهد الإنسان نفوسه ليتخلى الإنسان عن هذه الأشياء .. يتخلى عن عاداته ليتجمل بعادات سيد الأولين والآخرين ....

ومن هنا جهاد العارفين فى البداية أن يقيم نفسه فى مقام المجاهدة للتشبه برسول الله ﷺ؛ فى مشيه، وفى نومه، وفى أكله وفى شربه وفى لبسه، وفى حديثه وفى كلامه، وفى إقباله على الخلق، وفى معاملته للمعرضين، وفى تودده للمقربين. وكانوا يحرصون كل

الحرص على أن يتشبهوا تشبهاً كاملا بسيد الأولين والآخرين فى هذه الأبواب وغيرها، من التى لا يتسع الوقت لذكرها .

كان رسول الله ﷺ ينام على جنبه الأيمن .. فيحكم على نفسه أن تنام على الجانب الأيمن، وإن اعترضت وتملصت يظل يجاهدها حتى تنطبع على هذه العادة المحمدية .. حتى تصير لا ترتاح إلا إذا نامت على الجانب الأيمن .. لماذا؟ .. تشبهاً برسول الله ﷺ (٢١:الأحزاب):

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

رسول الله كان إذا نام على جنبه الأيمن ينام على وضوء، ويقول ﷺ: {إذا نام العبد على طهارة، رفعت روحه إلى العرش}[٦٦].

ويستغفر الله، ثم يتلو آيات من كتاب الله: وهى آية الكرسى، وأواخر سورة البقرة، وسورة الخلاص، والمعوذَّتين، ثم لايزال يذكر الله ﷻ حتى تنام عيناه. والسالك المجاهد لنفسه فى طريق الله والطالب لأنسه لا ينام إلا إذا طبَّق هذه السنة الواردة عن سيد الأنام ﷺ، ومن شدة محافظته على هذه السنَّة ينال وراثة: " تنام عينى وقلبى لا ينام"، فالوراثة تأتى من شدة المحافظة على السنَّة .. فكلما حافظت على السنن النبوية ورثت المقام العالى عن خير البرية فى هذا الباب .

ولذلك وجدنا جلَّ إهتمام أئمة الصالحين، بجانب عظيم من جوانب سيد الأولين والآخرين ﷺ، فلم يهتموا بغزواته وحروبه، وإنما أتموا بشمائله وأوصافه، وكان كل ما يهتمون به كتب تسمى: كتب الشمائل، وهى عن الأوصاف الذاتية المحمدية. (الشمائل للحكيم الترمذى)، وله شروح كثيرة، وكتاب (المواهب اللدنية)، وشرحه فيه استفاضة واسعة ، وكتاب (الشفا للقاضى عياض)، ولنا كتبنا: (حديث الحقائق عن قدر سيد الخلائق) و (الكمالات المحمدية) و (الرحمة المهداة).

[٦٦] أخرجه البخارى ومسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه.

فكانوا يهتمون بهذه الشمائل المحمدية، لينطبعوا على هذه الأوصاف الكمالية، لأنها هى مجاهدات العارفين ... فقد قيل لسيدى أبى يزيد البسطامى ﷺ: إن فلاناً يطير فى الهواء!!، فقال: ما زاد عن طائر. وقيل له: إن فلاناً يمشى على الماء!!، فقال: الأسماك تفعل أكثر من ذلك!!. وقيل له: إن فلاناً يقطع ما بين المشرق والمغرب فى لحظة . فقال: إبليس يفعل ذلك!، فقيل له : وما الكرامة إذن؟، فقال: {ليست الكرامة أن تطير فى الهواء، ولا أن تمشى على الماء، ولا أن تقطع ما بين المشرق والمغرب فى لحظة، ولكن الكرامة أن تغيِّر خُلُقاً سيئاً فيك بخُلُقٍ حسن} ... وهذه حقيقة تزكية أو جهاد النفس عند الصالحين .

لأن الإنسان لو جاهد نفسه فيما ذكرناه فى قيام الليل، وقام الليل كله من أوله إلى آخره – لمدة أربعين عاماً – ولكنه لم يغيِّر خلق البخل الذى يتصف به!! إلى كرم سيد الأنام، فهل هذا جاهد نفسه؟ لا ! بل إن جهادها فى التخلى عن الأوصاف المذمومة، والتحلى بالأخلاق المحمودة، فإنه يتخلى عن عاداته، ليتجمل بعادات سيد الأولين والآخرين ﷺ؛ عاداته فى الطعام والشراب والأكل، وما شابه ذلك ، وكما سبق فى الذكر وقلنا هذه العادات جمعتها كتب اليوم والليلة مثل: عمل اليوم والليلة لابن ماجة، وللترمذى، ولأبى داود، وأجمعها الأذكار للنووى ﷺ، لأن فيه العادات التى وصلت إلينا من السلف الصالح عن النبى المختار فى كل الأطوار.

فإذا تخلى عن عاداته وتجمل بعادات سيد الأولين والآخرين ﷺ تخلى عن أوصافه الذميمة، وأولها وأخطرها الجهل، والبخل، والأثرة، والأنانية، والشح، والغضب، والعجلة، والشره، وغيرها من الأوصاف التى نعى كتاب الله على المتصفين بها، ونبه المؤمنين إلى أخطارها، وطلب منهم أن يتصفوا بأضداده ، بأن يتصف المرء: بالعلم، وبالحلم، وبالحكمة، وبالتواضع، وباللين، وهذه يا إخوانى تحتاج إلى جهاد شديد، لأن تغيير الخُلق أمر يحتاج إلى عزيمة لا تلين، وإلى همة لا تستكين، وإلى أمل غالٍ وعالٍ، لا تغفل عنه النفس طرفة عين، لأنه يريد تحقيق هذا الأمل.

ثانياً: لتصحيح الوجهة وشحذ الهمة

قال الإمام أبو العزائم رضى الله عنه:

ابدا إلى هذا الجناب حنينى لا صبر لى حتى تراه عيونى

الإمام أبو العزائم ﷺ وأرضاه يعلمنا فى هذا البيت وما بعده، الوجهة التى يجب أن يكون عليها السالك فى طريق الله .... من البدء إلى الختام، صحيح أننا كلنا والحمد لله .... فى البدء كان منهجنا، ما وضحه الإمام أبو العزائم فى قوله:

الحــب مبــدؤنا والوجــه قبلتنــا والمصطفى قدوتى فاعلم مراقينا

لكن حدثت أمور وتغيرت أحوال ، فتغيرت معها وجهتنا، فأصبحنا كمن يتعلق بالسراب، ويظن أنه سيجد الماء!! فى حين أن وجهته قد تغيرت!! .. والوجهة هى التى عليها المعول فى طريق الله ﷻ .. فمن السالكين من يكون وجهته الله، ومنهم من تكون وجهته الدنيا .. ويقبل على الصالحين: على أمل أن يحصل على الدنيا عن طريق الناس الطيبين الذين يمشون فى رحاب الله ﷻ ... ومنهم من يكون وجهته الدنيا والظهور ... يعنى: يريد أن يكون رجلاً مشهوراً، مثل الشيخ أحمد البدوى والإمام الجيلانى، ويبقى له مريدون وأتباع .. ويكتبوا عنه القصص والحكايات.

ولكلٍّ مُناه ... فى حين أن هؤلاء الذين ذكرناهم، لم يخطر ببال واحد منهم الظهور والشهرة، أو أن يكتب واحدٌ عنهم حرفاً .. قليلاً أو كثيراً.

وهناك وجهات كثيرة تنتاب السالكين، وتخطر على بالهم، وتمر على نفوسهم فى سيرهم وسلوكهم لله ﷻ .

والرجل هو الذى لا يتحوّل، ولا يتغير، ولا يتبدل.. مهما تعرض له من متع، ومهما ألحت عليه الدنيا بالنعم .. وأغرته بالفتن، لأن مقصده الله ﷻ .

والذى يعرف مقصده ويحدد وجهته، فلا يوجد شئ فى الوجود يستطيع أن يغيّره أو يبدِّله ، لأنه واعٍ لمراده .. وناصح لمقصده، ولا يريد أن يغير هذا القصد، وهذا ما اشار إليه الإمام أبو العزائم فيما ذكرناه من قوله.

الحنين، والشوق، والحب، والود، والغرام، ...لمن؟ إما لله ، وإما لسيدنا رسول الله ﷺ .. وإما للسبب الذى يوصِّلنا لله ولرسوله .. فمرةً يوجهنا أبو العزائم إلى الله، فيقول لنا محفزاً ومثيراً كوامن الشوق:

لمــن الحنــين أحبتــى ورفــاقى هـذا الحنـين إلـى الكـريم البـاقى

ومرة ... يحولنا إلى رسول الله، فيقول:

هـذا الحنـين لمـن أنـا لـه صـورةٌ قــد جُمِّلــت بمعــالم الفتَّــاح

والصورة المجملة بمعالم الفتاح هى صورة سيدنا مُحَمَّد ﷺ، فدائما يحرك العارفون السالكين .. بالغرام، والود، والشوق، والهيام ...إلى الله ﷻ، وإلى رسوله ﷺ، ولذلك فالمريد الصاق يحافظ على هذه الأحوال، فلا يحوِّل وجهته ولا شوقه فى يوم من الأيام: إلى الحصول على المال، أو يحوِّل وجهته إلى طلب الأموال، أو يجعل همّه كله فى الحصول على المناصب الفانية، أو يجعل وقته كله للزوجة والأولاد، أو لغرض من الأغراض التى تشتت شمل الإنسان .... بعد أن كان مجموعاً على الديان ﷻ .... لأن المعروف أن السالك قبل سلوكه وجهاده لنفسه .. يكون متشعب الهموم: همُّ نحو الأولاد .. وهمُّ نحو الزوجة .. وهمُّ نحو اكتساب الأموال .. وهمُّ نحو الحصول على الجاه .. ولكن بمجرد دخوله الطريق يستحضر فى نفسه ما قاله أهل التحقيق:

قـد كـان لـى قبـل أهـواء مفرقــة فاستجمعت مُذْ رأتك العين أهوائى
تركــت للنــاس دنيــاهم وديــنهم شُــغْلاً بذكرك يا دِينـى ودُنيـاي

إذا كانت المصيبة الكبرى للذى لا يعرف الشوق والغرام للملك العلام، فإن الذى عرف الله ووحّده بالقصد ... وبعدما وحَّد مطلوبه، رجع ثانية إلى أودية التفرقة!!، تكون مصيبته أكبر!! .. وتلك هى الطامة العظمى التى ترد السالكين من أعلى مراتب

القرب إلى أسفل أودية البعد– والعياذ بالله ﷻ، لأن الإمام أبو العزائم يُعَرِّف السالك فيقول: ((السالك من توحَّد مطلوبه، ورضى بما قدَّره محبوبه)).

أى لم يعد له مطلب إلا رضاء الله ﷻ ...ومادام توحَّد مطلوبه : فلابد أن يرضى بما قدَّره محبوبه .. ولذلك وردت تلك القصة عن الإمام أبى العزائم فقد كان فى زيارة للشندويلى باشا، وكان من شندويل، وأثناء الزيارة وقع بصر أحد المريدين على بنت الشندويلى باشا فأعجب بها، وظل مشغولا بها، حتى تمكنت صورتها من نفسه، فافتتن بها وتغير حاله وتبدّل شأنه لأنه غيَّر وجهته، فلما لاحظ الشيخ ما ظهر عليه دعاه وسأله عما به، ورغم ما به إلا أنهم كانوا صادقين .. فلا يكذبون على الشيخ – لأن الكذب على الشيخ كذب على الله ورسوله – ومن كذب على الأشياخ لا يفلح فى طريق القوم أبداً، ولو كان الكذب بحجة صورتها له نفسه، أو دعوة قدمتها له نفسه، لأن هذا لا يجب مع الله ﷻ ومع رسوله، ومع الصالحين من رجال الله، فكيف يكونوا مع الصالحين ويكذبون عليهم فى مواجهتهم؟!.

فأخبره بحاله، فطلب الشيخ من الباشا أن يزوج ابنته من هذا الرجل، فأسرع الباشا فى تنفيذ الأمر، وتم العقد وأخذ المريد محبوبته إلى مخدعها فى ليلة العرس، وتم الزواج، وفى الصباحية وجدها قد فارقت الحياة الدنيا! فتبدل حاله وأسرع إلى الشيخ مهموماً مغموماً، وقال له: فلانة ماتت، فقال له الشيخ: فابق معها حتى آتى لكما، وتباطئ الشيخ فى الذهاب، وعندما ذهب وجده خارج الغرفة، فقال له: لِمَ تركتها وحيدة فى الحجرة ولم تجلس معها؟! فقال له: إنها ماتت، فقال له: لكن الوفاء أن تجلس معها وهى ميتة!! أليست هذه هى التى ملكت عليك مشاعرك، واستولت على لبِّك وقلبك؟ ثم لطمه على وجهه ليفيق، وقال له: ((يا بنى فتِّش عن محبوبك، واختر لك محبوباً لا يموت ولا يفوت)).

فالسالك لا محبوب له إلا الله ، ولا مقصد له إلا الله، وإذا تزوج فإنما يبغى بذلك زوجة صالحة تعينه على الوصول إلى خالق نفسه .. حتى لا ينظر إلى هذه أو تلك، واذا سعى للأرزاق فسعيه حتى يكفَّ نفسه عن سؤال الناس، ويتفرغ لله ﷻ، وليس لكى

يجمع المال الذي يبنى به عمارات أو يشترى به سيارات، لأن هذا ليس شغله، وإذا رزقه الله بالأولاد قام بهم كما كلّفه رب العباد، تنفيذاً للتكليف الذى قال الله فيه (٦:التحريم) :

﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾

فلا يشتغل بهم بالكلية، ولا ينصرف إليهم عن الله .. وإنما همّه كله إلى الله ﷻ .. عملاً بقول الله ﷻ (٩:المنافقون):

﴿ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾

وكلما أرادوا أن يشغلوه بمطالبهم، وأحبوا أن يستعبدوه بمشاغلهم، وكلَّما تهم النفس أن تستجيب فتنشغل عن الوجهة الصادقة أو تكسل أو تقعد أو تتوانى، أو تقصّر، أو تغفل، يقول لها السالك: إلى أين وصلت فى طريق الله ؟!! وماذا حققت من الهدف الذى تضعينه نصب عينك؟!!

هذا الهدف الذى أشار إليه سيدى عمر بن الفارض ﷺ فى قوله :

جَمَعْتُكُمْ نُصْبَ عَيْنِي إليه وجَّهْتُ كُلِّي

فهو متوجه بالكلية إلى الله ﷻ، ولذا فلا يصغى لخواطر النفس التى تمنعه، وتحجبه، وتشتت شمله!،لأنه يريد أن يُجمع على الجامع ﷻ، فإن المريد إذا ركن لهذه الخواطر وتركها تتحرك فى نفسه، انفعل بها وتأثر بها فوقع – ولو بدون قصد – فى أوحال التوحيد، والعياذ بالله، فلا يستطيع أن يكمل مشوار السفر إلى الله، إلا إذا قيض الله له من يخرجه من هذه الوحلة!!

لأن أكبر وحلة ... توحل المريد، أن ينصرف عن قصده، أو تتغير وجهته، أو تضيع همته فى الله ولله ﷻ .. ولذلك فالذين وصلوا واتصلوا .. بم وصلوا واتصلوا ؟ باليقظة الدائمة لهمم النفس .. وخواطرها ... وبواعثها .. فإذا كانت الخواطر تعينهم على قصدهم وعلى تحقيق مطلوبهم .. فرحوا بها وهشّوا وبشّوا لها. وإذا كانت الخواطر

تؤدى إلى تفرقة شملهم ، وإلى الذهاب بجمعهم ، وإلى صدّهم وابعادهم عن محبوبهم ، ضربوا بها عرض الحائط ، وانطلقوا إلى الله ﷻ فراراً (٥٥:الذاريات):

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

وكلمة (فَرّوا): .. تعنى أن الأشياء التى يتعرض لها السالك ليست سهلة !! لأنها تحتاج منه إلى الفرار، فإذا سكت عنها لحظة احتوته وسيطرت عليه، فيصبح عبداً للهوى أو للحظّ أو للشهوة أو للحرص.. أو للطمع .. أو للزوجة .. أو عبداً للولد .. أو للجشع ... ولا تصلح العبودية لله إلا إذا كنت حرًّا مما سواه.

ولذلك نقول أن من أوائل أغراض جهاد النفس أيضاً ... أن يؤتيه الله تعالى حكم مملكة نفسه .....كيف ذلك ؟

ثالثاً: أن يصير حاكماً مملكة نفسه لا عبداً فى بلاطها

إن أدعية الأنبياء والمرسلين فى القرآن الكريم، هى الباب الذى نستمد منه الأدب العالى فى معاملة الله ﷻ ... وأسرار تعاملهم مع مولاهم، وكذلك على هذا النهج: الأدعية الواردة عن الصالحين فى أحزابهم وأورادهم، ولذلك فالإمام أبو العزائم ﷺ وأرضاه ، وضح هذه الحقيقة .. فقال:

وفـــى دعـــائى جمـــالٌ يلـــــوح للفتـــــيان

ودعاء الصالحين فيه جمال روحانى، لا يلوح ويظهر إلا لمن وصل لمقام الفتوة، العالى، ولذلك عندما تنظر إلى مقام سيدنا إبراهيم فى قوله تعالى (٦٣– ٨٩:الشعراء):

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْأَٰخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾

نجده يشتمل على علم راقٍ، ليس علم إطلاع، ولكنه علم بالله ... فقد بلغ الأنبياء – عليهم صلوات الله وسلامه – الغاية فى العلم بالله ﷻ .. فالعلم بأحكام الله، والعلم بشرع الله: ربما يكون أعداء الله أفقه فيه من أهل الله . لكن العلم بالله، كما قال الإمام أبو العزائم ﷺ:

فـــالعلم بـــالله العلـــيِّ غـــوامضٌ لا يفقهـن إلَّا لِصَـبٍّ فـى اصـطلام

فالعلم بالله ﷻ غامض لا يلوح أو يظهر إلا .. لمن صفا قلبه لله من كل مظهر، فسيدنا إبراهيم افتتح الدعاء هنا بقوله :

﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

فأول طلب يطلبه من الله ﷻ أن يهب الله ﷻ له الحكم .. ما الحكم الذي يطلبه ؟ الذى يسمع الآية – وليس من أهل العناية – يعتقد أنه يريد المُلك، أى يريد أن يكون ملكاً أو زعيماً أو رئيس جمهورية، لكنه عليه السلام لم يكن يرد كل ذلك .. بل كل ما يطلبه: أن يكون ملكاً على المملكة الخاصة التى ملَّكها له الله ﷻ، وهى مملكة الإنسان التى يقول فيها الإمام علىٌّ ﷺ:

أتـــزعم أنـــك جـــرم صـــغير وفيـــك انطـــوى العـــالم الأكبـــر؟

فالإنسان: هو الأكوان بما فيه من حقائق استودعها فيه الرحمن ﷻ، فهو كون صغير، والكون إنسان كبير، فإذا أحب الله عبداً واستوى هذا العبد فى مقام السير والسلوك إلى مولاه، أعطاه الله ﷻ حكم نفسه (١٤ :القصص):

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

والعلم الإلهامى لا يأتى إلا بعد أن يتولى المرء حكم نفسه ، فالذى يريد العلم الإلهامى ، لابد أن يتمكن أولا من حكم مملكته ، فيصير لايتصرف فيها على حسب هواه ، ولكن يحكمها بما يريده الله ، وليس للمرء فى هذا المقام هوى مع مولاه ﷻ. وبعد الحكم يعطيه الله العلم .. ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾.

إذن فالحكم أولاً، لأنه لو أعطاه العلم الإلهامى الوهبى .. من غير حكم نفسه – والنفس بطبعها تحب الظهور– فستُظْهر .. ولو لمن ليس أهلاً لهذا العلم!! .. جواهر هذا العلم! وتلك خيانة عظمى عند الله ﷻ ، يجازى صاحبها بأن تقطع رقبته فى دائرة الوصول!!! فلا يسمح له بالقبول قط عند الله ﷻ ، وفى ذلك يقول الإمام أبو العزائم رضي الله عنه:

احفظـن سـرّى فسـرّى لا يُبـاح مَنْ يَبُح بالسـرّ بعد العلم طاح
علمنـا فـوق العقـول مكانـة كيف لا وهو الضيا الغيب الصراح
خصَّـنا بالفضـل فيـه ربُّنـا ذاك سِـرٌ غـامضٌ كيـف يُبَـاح

فالذى يوليه الله ﷻ حكم نفسه، يفضل الحبس والسجن على أن يبيح بسرٍّ لمن ليس أهله، كما قال سيدنا يوسف عليه السلام (٣٣:يوسف):

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾

ففضل السجن على الإباحة بالأسرار .. مع أنه لو باح لهم بهذه الأسرار لرفعوا شأنه، وولَّوه منصباً رفيعاً لديهم، ولم يدخلوه السجن ... لكنه كتم هذه الأسرار فى صدره، ولم يبحها لهم ... وقد فعل ذلك أيضا سيدنا موسى عليه السلام حين قال:

﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى ﴾

أى مما فيه من علوم الله وأسرار الله، وكثرتها وتنوعها ..

﴿ وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى ﴾ (١٣:الشعراء)

أى: إلا إلى إخوانى الذين تتحمل قلوبهم هذه العلوم والمعانى.

لكنه لو جلس فى الملأ، ماتت فى نفسه شهوة الكلام، والرغبة فى التعظيم، فلا يتحدث ليشار إليه بالبنان، أو ليعظمه إنسان، أو ليحصل شيئاً من عالم الأكوان، لكنه لا يتحدث إلا إذا فتح الفتاح برزق صرفه الله ﷻ من كنز قلبه، لمن هو مراد لربه ﷻ، فكأن المعانى التى فى قلب العارف أمانةٌ إلهية .. وكما أن قلبه كنز لهذه المعانى والمعارف

الربانية، ولا يصرف منها إلا بتصريح صحيح تراه عين قلبه من رب البرية، فلو جلس معه علماء الوجود، وليس معهم تصريح من الله ﷻ ينبئ عن استعداد قلوبهم لتلقى هذا العلم، فلا يخرج منه ولو كلمة واحدة، حتى ولو طالوه بألسنتهم، أو اغتابوه ببيانهم، لأنه لا يطلب بعلمه إلا وجه الله ﷻ.

فأول مطلب طلبه سيدنا إبراهيم .. هو مطلب كمل العارفين والصادقين من المريدين. فأول مقصد أضع عينى عليه فى طريق الله ﷻ .. لكى أصل إلى مراد الله أن يملكنى الله ﷻ نفسى، ولا يجعلها تملكنى، فتصرفنى على حسب أهوائها وأغراضها، وشهواتها وحظوظها ... وما أكثرها فى هذ الحياة ، وكل ما يتفضل الله ﷻ به على العارفين من أصناف الكرامات .. والعلوم والهبات، إنما هو نتيجة إلهية وأثار ربانية لسيطرتهم على مملكة النفس.

فعندما رؤى رجل من العارفين يطير فى الهواء، وقيل له: بِمَ نلت هذه المنزلة ؟ قال لهم : ((**وضعتُ هواى تحت قدمى فسخَّر الله ﷻ لى الهواء**)).

فهمة المريد الصادق ، أن يحكمَ نفسه ... وإذا كان له همه غير هذه: فهى من النفس، أى فهى شهوة من شهوات النفس .

وهل هناك مريدون لهم همّة غير هذه ؟ أو غرض دان من جهادهم لأنفسهم؟!! نعم!! .. هناك بعض المريدين يريد أن يفتح الله ﷻ عليه بالمعانى ليجذب السامعين، ولو لم يكونوا من أهل القرب والتدانى .. ومنهم من يريد أن تظهر على يديه الكرامات ويشار إليه بالبنان على أن هذا من الصالحين، وهناك من يريد عمل ضريح ليدفن فيه، ويتردد عليه فيه الناس بعد موته!! .. وبعد موتك، بماذا يفيدك الناس؟!! وبماذا تستفيد بهم؟!! ... ومنهم من يريد من الناس تقبيل يديه .. وأن يعترفوا له بالفضل عليهم، ويذكرون ذلك فى مجالسهم، وتسر الأذن بسماع ذلك .. وغير ذلك مما تطلبه النفس .. ويتمناه الهوى.

لكن المريد الصادق هو الذى يفقه كلام أبى الأنبياء والمرسلين عندما بدأ دعاءه بقوله:

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

أى اعطنى حكم نفسى .. لألحق بالصالحين .. من هم الصالحون؟

كلمة الصالح: أى الذى صَلُحَ لله ﷻ ، فقد صلح قلبه لنزول أنوار الله، وصلح سرُّه لرؤية سيدنا ومولانا رسول الله، وصلحت روحه لنيل المطالب العالية؛ من الأنس واللطف والودِّ من حضرة الله، وصلح جسمه لطاعة الله فى ظاهره وباطنه، وفى سرِّه وعلانيته، فأصبح كلُّه صالحاً لله ﷻ .

ومرتبة الصالحين مرتبة عالية، ولذلك جعلها سيدنا إبراهيم مطمح أمله، وغاية مُناه، فغاية مُنى العبد الصادق مع مولاه أن يلحقه الله بالصالحين، بأن يجعله الله على آثارهم، لأن الله ﷻ لا يجمِّل بأخلاُق الصالحين، ولا بأحوال الصالحين ..: إلا مَنْ أحبَّه واصطفاه لذاته ﷻ، وهذا يا إخوانى لا يتحقق إلا بالجهاد الفادح للنفس.

رابعاً: للرجوع للأصل والوطن الأول

إن أهل الاصطفاء هم الذين تفضل عليهم المتفضل فى الأزل القديم بقلب سليم، وروح من نور الحبيب الأعظم الذى هو من نور الله، وأكرمهم الله ﷻ قبل التكوين وقبل إيجاد الجسم فى عالم الدنيا – بروحانيات عالية، ومقامات راقية، وأسرار غالية، فكانوا بالحق للحق مشاهدون، وبسمع من اسمه ﷻ السميع لحضرته سبحانه مستمعون، وبسرِّ المتكلم الذي انبلج على ألسنتهم لحضرته ﷻ مخاطبون. وقد شاهدوا فى هذا الموقف العظيم كلَّ النبيين والمرسلين، والملائكة المقربين، وأهل عالين وعليين، والأرواح النورانية التى ستظهر فى الحياة الدنيا إلى يوم الدين.

فكل الأولياء والصالحين .. وكل الصادقين، رأوهم رأى العين، واجتمعوا عليهم وحضروهم وجالسوهم وشافهوهم وشاهدوهم وحادثوهم فى هذا الموقف العظيم، ورأوا من الأنوار وكوشفوا من الحق ﷻ من الأسرار .. بما لا يستطيع أى إنسان أن يبيحه فى هذه الدار – إلا لقلوب صفت، ووفت، وارتقت وسمت إلى آفاق .. يقول فيها الفتاح ﷻ :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٣٧:ق)

وجاء التحقيق بعد خلق الأجسام !!.. وبعد خلق الجسم وظهور الحقائق العالية فيه، يحدث له لبس مما يراه الإنسان بعين الحس! ويسمعه بأذن الرأس! ويلمسه بحاسة اللمس الجسمانية!! ... وفى ذلك يقول الله ﷻ :

﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (١٥:ق)

فإذا انشغل الإنسان بهذه الأمور الجسمانية؛ انتاب القلب اليقظ غفوة أو غفلة أو رقدة أو نومة أو جهالة .. فيغيب عن هذه المشاهد والأحوال، وإن كان يشعر فى داخله بحنين إليها! ورغبة فى الوصول إليها .. وشوق شديد فى الرجوع إليها! .. وهذه هى حالة المريد الذى اصطفاه الحق ﷻ، وبشر به فى قرآنه الكريم، وقال فيه وفينا أجمعين :

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (٧٥:الحج)

إذا فالمقصد والغاية هو الرجوع إلى الحال الأول الذى كان عليه العبد فى مواجهة حضرة الأول!! .. وما عليه فى سبيل ذلك إلا أن يزيل الغشاوة!! ويمحو الجهالة التى وقع فيها فى حياته الدنيا!! ليرجع إلى حاله الأول ... فيكشف الله عنه الحجاب وغطاء الحس الذى حجبه عن الأحباب:

﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (٢٢:ق)

وكل ما يفعله العارفون ، والحكماء والربانيون، والأفراد الروحانيون، هو أنهم يطيبيون القلوب .. حتى يزيلوا هذه الغشاوة من عين القلوب .. فتنظر بنظر الله، أو تسمع بسمع الله، وترجع للحالة الروحانية التى كانت عليها فى البداية بين يدى الله .. فيتحقق فيهم قول الله ﷻ:

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (٢٩:الأعراف)

يقول الإمام أبو العزائم ﷺ

أنت فى غربة فكن كالغريب فالمبانى أواسط التحجيب
بدء وطنى الفردوس ملكوت ربى بل وبدئى بدءً جمال حبيبى

هذه هى بدايتك .. تريد أن ترجع لوطنك الأول، الذي كانت فيه الروح فى هذا الجمال، وفى هذا الكمال، والحنين هنا لهذ المقام!، والشوق هنا لهذا الجمال .. الذى رأته الروح، والذى رآه القلب بعين البصيرة المضية:

أبداً تحنُّ قلوبنا وحنينها دوماً لأول منزل

والحنين هنا للمنزل الأول الذى كانت تحي فيه ، وتنال فيه ما تشتهيه من الحياة الروحانية ، والحياة القلبية الهنية مع الله ومع رسل الله وأنبياء الله ومع أصفياء الله ، والمقربين من حضرة الله الذين سيظهرون إلى يوم الدين، لأنهم جميعاً كانوا فى هذا المشهد حاضرين (١٧٢:الأعراف)

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾

يقول الإمام أبو العزائم ﷺ وأرضاه

من ألست لم ننسَ ما قد شهدنا من جمال الجميل إذ خاطبنا

كيف أنساك يا جميل وأنت عرش نور الأسماء نور المعنى

وهذا هو حنين العارفين، وشوق الصالحين .. وهو للجمال الذى لاح لأهل الكمال والوصال الذي ذاقوه!! ولم ينسوه!! وللعطاء الذى أخذوه!! وجعله الله ﷻ مدخراً لهم فى أرواحهم! وفى قلوبهم! ولم يحجبهم عنه إلا هبوط الحواس الكونية إلى الممارسات الدنيوية .. وإلى العناصر الطينية .. وإلى الشهوات الدنية .. التى حجبتهم عن هذه المشاهد العلية.

جهاد النفس للرجوع للأصل النورانى الأول، والوطن الأول، أساسه أن يجاهد السالك ليتخلص من أخلاق وعادات الأصل الطينى، وحكم النفس وطباعها التى يبغضها الشرع، ويجمِّل نفسه بالعادات والأخلاق التى كان عليها سيدنا رسول الله، وهذا هو الجهاد الشديد، لأنه سهل أن يصوم ويصلى، لا مشكلة فى ذلك، واسمع لتقرير أبى هريرة مذيع الحضرة النبوية، فى حكم النبى فى إمرأتين والبون شاسع:

يقول: قيل للنبى: يا رسول الله، إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار، وتفعل وتتصدق، وتؤذى جيرانها بلسانها. فقال رسول الله: لا خير فيها، هى من أهل النار. وفلانة تصلى المكتوبة وتصدق بأثوار (أى بالقليل) ولا تؤذى أحداً، فقال رسول الله: هى من أهل الجنة}[٦٧]

فالجهاد عند الصالحين كيف يركب فرامل للسان؟ ولا ينطق إلا بما يرضى الرحمن، ويركب سماعة على الآذان، فلا تسمع إلا البرامج والكلمات التى يسمح بها الرحمن.

وقد يسألنى سائل: يعنى التلفزيون .. لا نشاهده ؟ لماذا لا؟!! الذى يسمح به الرحمن ستراه .. برنامج دينى، برنامج علمى، برنامج ثقافى، تمثيلية اجتماعية، أخبار، رياضى، لكن الممنوع الفديو كليب والرقص، وما شابه، ومناظر العرى، حتى لو أتت مثل المناظر الممنوعة فى تمثيلية اجتماعية مفيدة فقد وجب غض البصر عنها، هذا موجود، وهذا موجود .. وبيدك الريموت!!

[٦٧] الأدب المفرد البخارى، عن أبى هريرة رضي الله عنه.

وهذا أساس المجاهدات، وبعد هذا يحاول أن يصفِّ القلب .. وهذا جهاد آخر!! ؟ لأنه لكى يظهر على الشاشة محطات البث لابد أن يكون جهاز إستقبالها مضبوطاً، فأنا أريد أن أرى البث المحمدى، ويظهر عليها البث الملكوتى، ويظهر فيها برنامج ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ (٥طه) ويظهر فيها برنامج ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (٦النمل)

أراه... وهو يتلقى القرآن . وهذه برامج موجودة ومشهودة، ولكنها تبغى أنفساً عن الشهوات مفقودة، وبذكر الله ﷻ حياتها قائمة ومشهودة .. وهذه لا بد لها من الجهاد لكى يصلح جهاز الإستقبال، فيستقبل هذه الإرسالات، وطبعاً لن يقدر بمفرده، لازم مهندس خبير يقدر يوصِّله لمحطات العلى الكبير.

وكلنا معنا هذه الأجهزة والحمد لله، ولكن هناك من ترك الجهاز حتى صدأ!، وجميع هذه الأجهزة قد جربت، لأن الحضرة الربانية أول ما صنعتها جربتها، وكلنا أجمعون حضرنا ورأينا أول لقطة:

﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ - فتح الأجهزة - ﴿ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ ﴾ - سمعوا وشهدوا - ﴿ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ (١٧٢:الأعراف)

فكلنا جُرِّبَ البث عندنا، وثبتت صلاحية هذه الأجهزة، وكلنا مركبين الطبق، ولكنه الطبق النورانى الذى يستقبل من حضرة القرب والتدانى. إنه موجود معنا . ولكن الطبق فصل .. لماذ؟ لسوء سلوك صاحبه، أو لوجود الأهواء والملذات.

إذن الأجهزة موجودة ، ولكنها تحتاج لمعالجات، أو إصلاحات لتصبح الأنوار مشهودة، والتجليات ممدودة، والإنسان فى هناء وفى بهاء، وجمال وكمال .. مع الواحد المتعال ﷻ (١٢٨:النحل):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾

معهم بالأنوار والأسرار، والعلوم والأطاف، والخفايا وكل ما يحتاجه المرء .. من عوامل الطهر والبقاء، وهذا هو الجهاد الذى لا بد منه .

مثلا الذى عنده تليفزيون، ويريد منه أولاده أن يستقبل التلفزيون المحطات الفضائية فلا بد عليه أن: يتحرك ويذهب للمهندس ويتفق معه لكى يركب الطبق ويستقبل ... ولكنه يسوف على أولاده ويقول: حاضر .. حاضر! ولا يتحرك .. هل يستطيع أن يستقبل؟!!. كذلك الأمر : لا بد أن يتحرك الإنسان فى طريق التزكية، وكذلك نحن الآن معنا المحطات الأرضية .. ونأخذ أقاويل الخلق، وأحداث وقصص الخلق ... وما يحدث بين الخلق .. وهذا ما نحن مشغولون به!! . لكن الذى يريد أن يسمع :

﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ (٦٢:آل عمران)

من الذى سيرويه؟ الله.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ (٣يوسف)

من الذى يقص هنا؟ .. الله، سيسمع القصة من حضرة الله ﷻ. سيسمعها ويراها ...كما حكى الله تعالى لحبيبه ﷺ قائلاً له:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ (١:الفيل)

(ألم ترَ)! .. وليس "ألم تسمع"،

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ (الفيل)

كل هذا رآه ﷺ.، رأى المشهد ... واسمع للحق ثانية:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ

سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ (٤٥، ٤٦:الفرقان)

فيهمسه الله تبارك وتعالى بالكلمات، ويمتع قلبه بالمشاهدات، هذه مرتبطة بهذه، وهذه أعلام وأنوار العنايات. هذا كله كيف يأتى؟!! ويكون لك وراثة نبوية من هذه الأحوال والمشاهدات والحكايات ...كيف؟!!

لا بد أن تعيد أجهزتك إلى حالتها الأولى، أى بحالة خروجها من المصنع النورانى الأول، يجب أن أشغل الأجهزة المجهزة لهذه الحالة، وهى موجودة بداخلى؟ فمثلما توجد عين أرى بها الأكوان! .. فيَّ عين أرى بها غيب الرحمن!، موجودة فيَّ بها أرى الملائكة والجن والجنة، وأرى بها العرش والكرسى، وقال فيها ربنا:

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [٤٦الحج]

وماذا قال على الكفار [١٧٩الأعراف]؟.

﴿ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾

هذه الأجهزة عندهم معطلة، وغير قابلة للإصلاح، خرجت أصلاً معيوبة! لكن الأجهزة الخاصة بنا: المصنع جربها، ورأت وسمعت، ولكن كل المطلوب .. تصليح الأعطال لتعود الأجهزة إلى عهدها الأول وسيرتها الأولى، أى بلغة العصر إصلاح وصيانة! لازم الإصلاح أولاً ثم بعد ذلك الصيانة الدورية. إذن الإصلاح أولاً .. فتدخل الورشة المحمدية لكى تتجهز للمشاهدات الإيقانية، التى يقول فيها الله:

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ - ستشـــاهدون - ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ – سترى هذا كله، ويسأل الناس بعد ذلك - ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (٥– ٨:التكاثر)

يقولون لكم: صفوا الجنة التى رأيتموها!!.يا حارثه!!.. فلنسمع الحديث:

{أن النبي ﷺ قال لحارثة بن النعمان ﷺ: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: إن لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ . هذا هو الجهاد . فقال: يانبي الله، عزفت نفسي عن الدنيا . وهذا أول بند فى التزكية . فأسهرت ليلي . وليس فى الوسن . وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وإلى أهل النار كيف يتعاوون فيها، فقال: أبصرت فالزم، ثم قال: عبدٌ نوَّر الله الإيمان في قلبه، فقال: يا نبيَّ الله، ادع الله لي بالشهادة، فدعا له، قال: فنودي يوماً: يا خيل الله اركبي، فكان أول فارس ركب، وأول فارس استشهد}[٦٨].

خامساً: ليبلغ مراتب القرب

وأمل الإنسان الصالح أن يكون:

﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (٦٩:النساء)

وإذا كان أمله أعظم يطمع أن يكون مع:

﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ [٢٩ الفتح]

وهذه معية خاصة، أما الأخرى فمعية عامة لكل النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. لكن هذه معية خاصة "والذين معه"، أما إذا كان يريد أن يكون في معية الذات الإلهية (١٢٨النحل):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾

أو في مقام أعظم، وهو مقام العندية:

[٦٨] عن أنس ﷺ ،العسكرى فى الأمثال – جامع المسانيد والمراسيل

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [٥٥القمر]

وهذه مقامات سامية، ومنازل راقية، وشرح هذه المقامات لا ينبغي أن يكون بالعبارات، أو بالكلمات .... وإنما بالمشاهدات، والتجليات لأهل القلوب النيرات. وأعظم هذه المقامات الإلهية [٦:النمل]

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾

وهذا مقام خاص برسول الله، ويعطيه الله أيضاً بالفضل لعباد الله (٦٥:الكهف):

﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾

وهو مقام اللدنية ... فقمام المعية، ومقام العندية، ومقام اللدنية ... مقامات إلهية رضوانية ... تحتاج إلى همَّة عظيمة فى النفس الإنسانية، تجعل الإنسان ينشغل بالكلية بهذه الكمالات وهذه الجمالات، ويود أن يتصف بها ليكون من أهلها، ويرث المقام المذكور بشأنها فى كتاب الله ... فيتجمل بأنوارها، ويتحلى بجمالها، ويشهد مشاهداتها ... فإن التخلِّى، بعده التحلِّى، وبعده التجلِّى، وبعده التملِّى، وهذه مراتب القرب: يتخلَّى ... ثم يتحلَّى ... فإذا تحلى بأوصاف الحبيب ﷺ تجلَّى الله له ... بكمالاته، وعظمة ذاته، ثم يتملَّى .. فيشاهد ما غاب عن العيون، مما لا يراه إلا خاصة المقربون:

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ [التكاثر].

إذن ميدان جهاد النفس يا إخوانى .. هو كما قلت لطالب الوصول ، ولطالب القرب، وللراغب فى المقامات العلية .. جهاد فى التخلَّى عن عاداته النفسية، والتجمل بعادات سيد البرية المذكورة فى سيرته فى الأحاديث المروية، ثم يتخلَّى عن أخلاقه البشرية التى يتحكم فيها الطبع والجسم، ليتخلق بأخلاق رب البرية، وقد أوجد الله

الإنسان عليها .. إنه كان – قبل البيان وقبل الجنان – ظلوماً جهولاً .. وعندما يجاهد نفسه يبدل الظلم بالعدل، والجهل بالعلم والنور .

سادساً : التخلق بأخلاق الله

وهناك جهاد للقلب .. فبعد الإنتهاء من النفس .. نتحدث عن أحوال القلب وجهاده، كيف يدخل الإنسان على مولاه، وهو لم يتجمل بالجمال الذى يحبُّه الله ويرضاه؟!! والله لا يحب إلا الجمال الذى ذكره وأثنى عليه لأهل الكمال، وقال فى شأنه لأهل الوصال (١٩٩:الأعراف):

﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾

فثمرة الجهاد: هو التخلق بأخلاق كتاب الله، وكان ﷺ خلقه القرآن.

الجهاد للتخلق .. لذلك بعض سلفنا الصالح ﷺ كانوا يعطون مريديهم بعض الأسماء الحسنى الإلهية ليذكروا بها الله، مثل اسم القهار، أو القيوم، أو الحى، أو غيرها .. فالإمام أبو العزائم ﷺ وأرضاه بين لنا البيان الشافى، واختصر لنا الطريق فى هذا الأمر، فبين ﷺ أن الأسماء الحسنى الإلهية للتخلق، واسم (الله) ﷻ للتعلق، أى: لابد أن أتخلق أولاً بأسماء الله الحسنى .. ثم بعد ذلك: أذكر اسم (الله) المنفرد بالجمال والكمال، متعلقاً بحضرته، لكن أذكر اسم (الله) – وأنا لم أتخلَّق بأخلاق الله، .. كيف يكون ذلك؟!! .. لا يجوز ذلك، فلا بد أن أتخلق أولاً بأخلاق الله:

تخلــق بــأخلاق الإلــه وحــافظن على منهج المختار فى العقد تنسق

ومثال ذلك: إذا ذكر إنسانٌ اسم الله (العفوّ)، وقال: يا عفو – مائة ألف مرة – وهو بطبيعته ليس عنده عفو لمن ظلمه .. فما الذى عاد عليه من ذكر الله باسم (العفو)؟!! لا شئ !! .. لأن ذكر الله باسمه (العفو) .. هو أن: (أعفو عمن ظلمنى).

وكذلك حقيقية ذكر الله ﷻ باسمه (الحى): ثمرته أن يحيى القلوب التى تجالسنى وأجالسها، وتؤنسنى وأؤنسها .. فكل من يجالسنى تحدث له حياة .. وقلبه يحيا بالله

وبذكر الله .. لكن عندما أذكر الله باسمه (الحى) .. وأنا جالس مع أموات .. ليس لهم ذكر بالله .. وذكرهم فى الشهوات والحظوظ والأهواء والملذات، والريالات والدولارات والعقارات، وغيرها ... فأين ذكر الله هنا؟!!.

وهكذا .. فذكر الله فى هذا المقام التخلق بأخلاق الله مع عباد الله .. حتى يذكرنى الله بالكيفية التى بها أتخلق بهذا الاسم مع حضرة الله ﷻ فى علاه.

وهذا هو طور الجهاد المقرب لمنازل القرب والوداد .. وهذا يستطيع الإنسان أن يقطعه فى نفَس .. وقد يمكث الإنسان سنين عدة ... ولا يستطيع أن يُغيِّر خلقا من أخلاقه ..... لأن هذا يحتاج إلى همة وعزيمة .... والباعث الذى يبعث الإنسان على هذه الحوال، هو التعلق بهذه الكمالات ، والرغبة فى هذه المواجهات ، فإن الله ﷻ كما قال ﷺ : { إن الله يحب من خَلقه من كان على خُلقه }[٦٩]

ولم يقل من يطيل القيام، أو يطيل الصيام، أو يطيل الذكر، أو غيره من العبادات، فكل هذه الوسائل معينةٌ على بلوغ هذا المراد .. لكن الذى يريد أن يصل إلى المراد .. فباب الجهاد هو الذى بَيَّنَّاه، وهذه هى ميادين الجهاد يا إخوانى، فلا يأتنى أحدكم ويقول: لى عشرون سنة ولم يفتح على بشئ، ولكن انظر إلى لوحة المفاتيح التى عندك، هل غيرت فيها فى أخلاقك لتحظى بوافاقك؟!، ليتجلى عليك هذا الأسم، وتنال نصيبك من ميراث هذا الخلق. وجميع المقامات فى هذه المجاهدات.

والذى جعل معظم الناس – قديماً وحديثاً – يقعون فى اللبس، هو اهتمامهم بالوسائل المعنية، وجعلوها غاية المراد .. فالعبادات والأذكار وسائلٌ تعين على هذا الجهاد، فلما اشتغلوا بهذه الوسائل، وتركوا أساس ميادين الجهاد، لم ينالوا الفتح، والفتح والفضل والإمداد وهى لمن استجاب وأناب:

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (١٨:الرعد)

يبلغه الله ﷻ بالجهاد .. والفضل والجود والإمداد.

[٦٩] رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط عن عمار بن ياسر : حسن الخلق خلق الله الأعظم.

سابعاً: لنوال الفتح النورانى

كما أن أهل الظاهر، لو تعكرت مظاهرهم، وتباطأت أرزاقهم، وانحرفت أمزجتهم، وسقمت أجسامهم .. يكون ذلك بسبب عدم قيامهم التام بشرع الملك العلام ﷻ ... كذلك يا إخوانى .. فإن أهل الفتح، الذين يريدون فتح الله ﷻ، لا بد لهم من السير على المنهاج، الذى كان عليه سدنا ومولانا رسول الله ﷺ.

وفى ذلك ورد أن أصحاب النبى ﷺ كانوا صنفين: منهم من يأخذ بقوله، ومنهم من يأخذ بفعله، منهم من كان يسمع ما يقول فينفذ، – وكان ﷺ يأمر بما فيه اليسر– ومنهم من كان لا يرضى أن يتابعه فى القول – لأنه يعلم أن هذا أمر عام لجميع الأنام – فقط كان يقتدى بفعله – لأنه يعلم أن فعله عزيمة، وقوله رخصة – فيعمل بالعزيمة ليكون من أهل العزائم.

وأنتم تعلمون أمر الثلاثة الذين ذهبوا إلى منزله ﷺ يسألون عن عبادته الخاصة التى فيها عزائم ليقتدوا بها، ويهتدوا بهديها، فيفتح الله ﷻ عليهم بما فتح به على العاملين بها ... والمنهاج يا إخوانى، بعض السالكين يظن أنه على حسب مزاجه الشخصى، وهواه الذاتى، وهذا ما يجعله يقف في موقفه ولا يتقدم ولا يتحرك ولا يفتح عليه!! .. ولذلك من يريد الفتح لا بد أن يراجع المنهاج على منهج حبيب الله ومصطفاه الخاص الذاتي .. فمثلاً: .. العوام .. أمرهم الله ﷻ بخمس فرائض فى الصلوات؛ الصبح، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، لكن الحبيب كلَّفه الله بفريضة سادسة كما سبق وأوردنا فى قيام الليل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ ﴾ (المزمل)

فالذى يريد أن يتابعه فى المنهاج ... وكما سبق وشرحنا ... هو الذى يفرض على نفسه قيام الليل ، كما قال الله ﷻ :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ (٢٠المزمل)

وهم الذين مع رسول الله فى معية الأنوار الذاتية، والعناية الربانية، والعلوم الوهبية، والأسرار الكنزية.

وهؤلاء .. كل فرد منهم يفرض على نفسه قيام الليل، ولا يتعلل لنفسه بأن الفتح فضل من الله، وقيام الليل فرض على رسول الله فقط، وهو ليس مطالَب بذلك، فإذا تكاسل عن ذلك، فمن أين ياتيه الفتح؟!!!.

إذن الذين يريدون أن يكونوا من أهل المنهاج: إنما يريدون بذلك أن يصلوا إلى الفتوحات الربانية، القلبية، والروحية، والقدسية .. وهذه فتوحات كلها: فيها إلهام، وفيها فراسة، وفيها نور، وفيها كشف، وفيها عناية من الله ﷻ.

فلا بد لكل رجل من هؤلاء .. أن يراجع نفسه على هذا المنهاج ، وإذا التمس العذر لنفسه حرم من هذا المقام، لكن الذى يريد هذا المقام دائماً يراجع نفسه ويلومها، ولذلك عندما تراجع سير الصالحين الكمل، تجدهم جميعاً كانوا يلومون أنفسهم .. فمهما وصل الرجل منهم تجده يلوم نفسه، ويقول لها: أنا لا أنفع فى شيء!، أنا لا أعرف شيء! ... أنا فقير ... أنا مسكين ... لماذا ؟ ... لأنه يعرف أن هذا هو الباب للفتح!! ... ولذلك فالإمام البوصيرى ﷺ بعد أن أكرمه الله غاية الإكرام، وأنشد فى مواجهة المصطفى قصيدة البردة المباركة، وسيدنا رسول الله أكمل له بعض أبياتها، إلا أنه قال:

أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به وما استقمت فما قولى لك استقم

أى أمرتك بالخير، لكن أنا مازلت لم أكتمل فى الجهاد، ولا فى الصفاء والنقاء، فكان دائماً يلوم نفسه!!. فعلامة الملازم لطريق الفتح أنه يلوم نفسه دائماً، ولا يلوم غيره، أما المريد الكسول، فهو الذى ينسب التقصير إلى شيخه! فإذا أبطأ عليه الفتح، زعم أن الشيخ لا يحبه!!. لكن المريد الملازم هو الذى يُرجِع القصور والتقصير لنفسه،

ودائماً يلوم نفسه، لأنه لو أُهِّل فلن يستطيع أحد فى الأولين والآخرين أن يحرمه من فضل الله، أو يمنع عنه فتح الله جَلَّ فى علاه، لأنه تأهل لذلك الفضل .. لكنه لو لم يتأهل .. من الذى يستطيع أن يسوق له هذا الفتح من الله، وهو غير مؤهل؟!!

لا أحد يستطيع أن يفتح حتى على ابنه – ولو كان من كُمَّل أهل الفتح!! فالرجل الصالح الذى أعطى ابنه أوراداً ودخل الخلوة وظل فترة طويلة يجاهد وخرج، ولما سأله ووجده لم يفتح عليه، أعطاه أوراداً ثانية وثالثة، وفى النهاية قال له: يابنى، لو كان الفتح بيدىَ، لكنت أول مريد عندى فى الطريق، ولكن الفتح بيد الله، يعطيه من يشاء .. أى هذه عناية من الله، وتحتاج منك إلى التأهيل، فالتأهيل عليك، والمنن والفضل على الله ﷻ.

فإذا كنت لا تريد أن تجمِّل نفسك بالصفاء والنقاء ... والنفس مليئة بشئ من الكبر، أو شئ من الزهو والغرور، أو شئ من الإعجاب بالنفس، .. فكيف ينزل فيها فضل ربك ﷻ؟!!! ... لا يجوز أن ينزل فضل الله ﷻ على نفس مغرورة، أو نفس مزهوة، أو نفس معتزة بذاتها، أو نفس ترى أنها من أهل الكمال وهى مازالت فى الوبال!! .. كيف يأتيها فضل الله ؟!!!

ولذلك لا بد للمريد أن يراجع نفسه ليرى أين ينزل، ويقف؟!! .. كيف يراجع نفسه؟ ... يقيس أحواله، وأفعاله، وأخلاقه ...بالصالحين ... وينظر فى نفسه إلى ثمرات الفتح التى أُوتيها الصالحون ... فيقول لنفسه: هل أنا عندى من هذه الثمرات، ومن تلك الأحوال؟ فإذا كنت لم أصل إلى مثل هذه الأحوال .. أراجع نفسى، وأراجع المنهج الذى أسير عليه .. وأول ما أراجع بالنسبة للمنهج الربانى ليس الأعمال.. ولكن التوجهات والنيَّات!! .. ما نيتى فى هذا العمل؟ .. وما توجهى فى هذه العبادة؟ .. أريد حسنات .. أم أطلب فتوحات؟ أم بغيتى وجه الله لا أريد سواه؟ لأنه ﷻ يعطينى على

قدر نيتى، قال ﷺ: { إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمريء ما نوى }[٧٠].
وقال تعالى:

﴿ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا - من أين هذ الخير - مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾ (٧٠:الأنفال)

وهذا بتياتكم . وكذلك لا بد للسالك ، أن يتعرف على أحوال أهل الفتوحات فى عصر سيد السادات ، ويسير على منوالهم ، ومنهاجهم ، ولا يسير على حسب هواه .، فمثلا : سيدنا أبو بكر ، وسيدنا عمر رضى الله عنهم وأرضاهم : كان سيدنا رسول الله ﷺ ، يراجعهم بيسألهم : كيف يقرأون القرآن ؟

{ فقال أبو بكر: أقرأ فى نفسى، فقال ﷺ : لماذا ؟ . فقال : لأسمع من أناجى ، فقال ﷺ : وأنت يا عمر! فقال : أرفع صوتى ، فقال ﷺ :لماذ؟ فقال : لأوقظ الوسنان ، وأطرد الشيطان ، فقال ﷺ : أنت يا أبا بكر ارفع قليلا ! وأنت ياعمر اخفض قليلا .!}

ما المقصد هنا ؟ أنه بذلك يخرج من هواه . إلى مراد رسول الله !!

ولذلك لابد للسالك الصادق ..... أن يخرج من هواه ، لمراد رسول الله ، ليأتيه الفتح من الله ، سر قوله ﷺ: {والله لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به }[٧١]

هذا هو طريق الفتح، فمن كان له هوى مال عن طريق الفتح، ولا يتم الفتح حتى يكون هواه مطابقاً لهوى رسول الله ... وكذلك كان مبدأهم (٢٨٥:البقرة):

﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

[٧٠] متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه
[٧١] رواه الترمذى الحكيم والخطيب عن ابن عمرو رضي الله عنهما

لكن عندما يقول الشيخ للمريد – الذى يريد الفتح – افعل كذا ففيه شفاؤك، فيتكاسل عن العمل حتى يسأله الشيخ: هل فعلت كذا؟ فيقول: أصل كذا، وأصل كذا، وينتحل الأسباب!!! .. مثل هذا كيف يأتيه الفتح؟!!

فالمريد الذى يريد الفتح له علامة .. إذا خالف ما عنده، ما عند شيخه – بدون كلام – فهو لم يصل إلى درجة المرام .. لأنه لابد أن يصل إلى حالة يكون ما يحس به داخلياً يعرف ما يريده الشيخ باطنياً .. لأن المريد الصادق يفهم إشارة المرشد قبل كلامه!!. لكن كونه يأمره الشيخ بما ينفعه، فيتكاسل ،ويتباطئ ... فلا يروم الفتح .. لأن الله تعالي يقول (٥٤:النور):

﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾

وأيضاً (٧:الحشر):

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾

فالمريد الصادق هو الذي يمشي علي هذا المنوال، وفي هذا الإتجاه، كما سبق وقلنا: تصحيح الوجهة .. بل إن المريد الذى يريد الفتح، يستكثر من العبادات التى يؤمر بها، حتى يجاوز الحد .. حتى إن سيدنا رسول الله كان يأمرهم بالتخفيف!! مثلما أمر عبدالله بن عمرو بصيام يوم وإفطار يوم، بدلاً من صيام الدهر كله .. وكذلك أمره أن يقوم بعض الليل وينام بعضه، بدلاً من قيام الليل كله .. وأمره أيضاً أن يقرأ القرآن ويختمه كل ثلاث .. فكان رسول الله ﷺ هو الذى يأمر العابدين أو المجاهدين بالتخفيف.

لكن المريد الذى لا يقوم إلا بالشدة ليطيع الخلاق!! ..فكيف يصير مثل هذا من أهل الوفاق؟!!، بل وكيف يترقى فى المعارج حتى يصل إلى التلاق؟!! .. فلا بد أن يكون الدافع للمريد الصادق من داخله، ومن باطنه، حتى لا يلتمس لنفسه الأعذار،

ولا يمشى على هواه، ليكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وهكذا .. فالمريد الصادق الذى يريد أن يفتح عليه الله، يمشى على المنهاج .. وما المنهاج؟ .. هو الأخذ بالعزائم التى كان يأخذ بها سيدنا رسول الله نفسه، كما كان الخاصة من أصحابه يفعلون .. ويتأدب بالآداب التى كان يتأدب بها أصحاب رسول الله مع رسول الله ... إذن المنهاج يكون من شقين:

الأول: أن يأخذ نفسه بالعزائم التى كان يفعلها رسول الله، وليس التى كان يأمر بها ﷺ، والثانى: أن يدرس الآداب التى كان عليها عِليةُ الأصحاب، ويهذب نفسه بها، ويؤدب نفسه بها، حتى يصل إلى المراد، ويكون ممن قال فيهم ﷺ: { **ما فضل أبو بكر الناس بكثرة صلاة ولا صيام ولا كثرة رواية ولا فتوى ولا كلام، ولكن بشئ وقر فى صدره**}[٧٢].

لذلك كان سيدنا أبو بكر – هو الذى يعرف الإشارات التى يلوِّح بها سيدنا رسول الله – وأصحابه كانوا يتسابقون ليسمعوها منه، فهو ﷺ لم يكن صاحب عبارات، ولكنه كان صاحب إشارات، وهو الذى كان يفقه هذه الإشارات، حتى أن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يتعجب من هذه الأحوال، ولما نزل قول الله ﷻ (٣:المائدة):

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

بكى سيدنا أبو بكر، فسأله أصحاب رسول الله: لِمَ تبكِ؟ فقال: لأن هذا نعى رسول الله ﷺ – لأنه مع باطن رسول الله مباشرة!! .. وكذلك لما نزل قول الله ﷻ:

[٧٢] أخرجه الترمذى

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾ (سورة النصر)

فبكى ثانية!! .. فسألوه، فقال: تواباً، أى: رجَّاعاً، وهذا معناه رجوع رسول الله ﷺ إلى ربه، أى انتقاله إلى الرفيق الأعلى. فكان دوماً يفقه ما فى باطن رسول الله ﷺ قبل أن ينطق به رسول الله، لشدة تعلق قلبه بحبيب الله ومصطفاه ﷺ.

أما سيدنا عمر فكان يأتى بالخبر من السماء قبل أن ينزل به كتاب الله!!، وكان ينزل القرآن بعد ذلك على رأيه!!، كيف يتم له ذلك؟!! ... روحه علت، فهامت، فإستشرفت هذه الأخبار قبل أن ينزل بها جبريل على النبى المختار ﷺ، فيأتى بها من عالم السرِّ، لأن سرَّه فى عالم السرِّ والنجوى يجول دائماً.

وهذه الخصوصية ليست لعمر ﷺ فقط .. بل أيضا سعد بن معاذ ﷺ – عندما حكم على اليهود – قال له حضرة النبى ﷺ: (**لقد حَكَمْتَ فيهم بِحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَات**)[٧٣] ... أى: أنت الحاجب للمحكمة الإلهية!!، فأنت نطقت بالحُكم، أى أن المحكمة حكمت وأنت بَلَّغته ... !!

ما هذه الأرواح ؟!! ... هذه الأرواح هى التى ملكت الأشباح، وكانت لا تفعل صغيرة ولا كبيرة إلاَّ على هدى من حبيب الله ومصطفاه ﷺ.

هذا هو المنهج الذى يسير عليه أهل تزكية النفس لنوال الفتح النورانى .. فهم دائماً مع أحوال سيدنا رسول الله، وأفعال سيدنا رسول الخاصة، التى ألزم بها نفسه .. وقد ألزموا بها أنفسهم .. كما أنهم نظروا إلى أحوال الأصحاب وتعلموا منهم الآداب، لأن أدباً واحداً يتركه الإنسان، ربما يجعله يخرج من دائرة معية النبى العدنان ﷺ، فإبليس خرج من معية الله بذنبٍ واحدٍ، وكان عن تأويل – عندما قال له ربه (٧٥:ص):

٧٣

﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾

فما الذى منعه من السجود؟! ... أنه إعتقد أنه لا يجوز السجود إلا لله، وخطأه أنه نسى أن الذى أمره بالسجود هو الله ﷻ، وفى ذلك يقول الإمام أبو العزائم رضى الله عنه:

هَفْــوَةُ العَــارِفِينَ أَكبَــرُ ذَنْــبٍ فَابْـذُلْ الـنَّفْسَ تُمْـنَحَنْ رِضْـوَانِى

فليس الإنسان العادى كالإنسان الكبير، وإنما زلَّة العالِم زلةٌ للعالَم .. أى العَالَم الذين وراءه كلهم .. ولذلك فالعالِم دائماً يراجع نفسه ليصحح فؤاده، ويجعل حبل وداده متصلاً بحبيب الله ومصطفاه، ويخرج بالكلية من حظِّه وهواه، ولا يسمح لهم بالعودة أبداً إلى يوم أن يلقى الله .. لأن أول شرط للصالحين والمتقين: ألا يكون لهم هوىً إلا الله ورسوله. أما الذى مازال له هوىً فى المال، أو هوى فى فلان، أو هوى فى هذا المنصب، أو هوى فى أمر من أمور الدنيا، أو أمور الظهور، أو أمور المشيخة، أو غيره، فهذا يحتاج إلى أدبٍ جمٍّ كبير، حتى يصير على منهج البشير النذير ﷺ.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

مراقى ومقامات النفس

مقامات النفوس

- المقام الأول: مقام النَّفْسِ الأمارة
- المقام الثانى: مقام النفس اللوامة
- المقام الثالث: مقام النفس المُلْهَمة
- المقام الرابع: مقام النفس المُطمئنة
- المقام الخامس: مقام النفس الرَّاضية
- المقام السادس: مقام النفس المَرْضِيَّة
- المقام السابع: مقام النفس الكاملة

مراقى ومقامات النفس

الحمد لله الذى أنعم على كل مؤمن كريم، بمقام فى الإيمان عظيم: (١١:المجادلة)

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾

تترقى النفس، أو النفوس التى ذكرناها قبل ذلك. والنفس أو الجوهرة الربانية أو الحقيقة التى تسير هذا الجسد .. تترقى فى مقامات قرآنية.

وقد وصف العارفون مراتب النفس التى تترقى فيها – واستنبطوا ذلك من القرآن الكريم – وجعلوا للنفس فى كل مرتبة أوصافاً وعلاماتٍ، وصفاتٍ وأحوالاً، ومحاسن وقبائح .. بل إنهم خصُّوا كل مرتبة بذكر من الأذكار .. فكلَّما اتصفت بصفات .. سميت – لأجل اتصافها بها – بإسمٍ من هذه الأسماء.

فإن صادقت النفس الشهوانية، وصارت تحت حكمها ... سميت: "أمَّارة"، وإليها الإشارة بقول الله تعالى (٥٣:يوسف):

﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾

وإن سكنت تحت الأمر التكليفى، وأذعنت لاتباع الحق .. لكن بقى فيها ميل إلى الشهوات، سُمِّيَت: " لوَّامة "، وهى التى أقسم الله بها عزَّ شأنه فى قوله سبحانه (٢:القيامة):

﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾

فإن زال هذا الميل وقويت على معارضة النفس الشهوانية، وزاد ميلها إلى عالم القدس، وتلقت الإلهامات ... سُمِّيَت: " مُلهَمَة "، وهى التى ذكرها الله فى قوله تعالى (٧، ٨:الشمس):

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾

فإن سكن اضطرابُها، ولم يبقَ للنفس الشهوانية حكمٌ أصلاً، ونسيت الشهوات بالكلية ... سُمِّيَت: "مطمئنة"، فإن ترقَّت عن هذا .. وسقطت المقامات من عينها، وفنيت عن جميع مراداتها ... سُمِّيَت: "راضية ". فإن زاد هذا الحال عليها ... سُمِّيَت: " مَرْضِيَّة " عند الحق والخلق. وقد ذكرت هذه الأوصاف الثلاثة فى قوله سبحانه (٢٧، ٢٨:الفجر):

﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ . ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾

فإن أُمرت بالرجوع إلى العباد لإرشادهم وتكميلهم ... سميت: " كاملة"، وهذا فى قول الله سبحانه وتعالى (١٢٤:البقرة):

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

وقوله جل شأنه (١٢:يس):

﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾

وهذا الجوهر المذكور يسمى أيضاً بـ ..:"النفس الناطقة"، ويُقال له: "القلب"، ويقال له: "اللطيفة الإنسانية"، ويقال له: "حقيقة الإنسان" ... وهو المدْرِكُ العالِمُ المخاطَبُ بالأوامر الشرعية .

والمراد من سلوك طريق القوم ترقى هذا الأمر الربانى شيئاً فشيئاً، إلى مقامه الأول ....بالعلاجات والأدوية التى وصفها سدرة منتهى الكمالات .. وروح أرواح أهل النهايات ﷺ، والتى منها .. كما أسلفنا الصيام والقيام وقلة الكلام ، والشفقة على الأنام، والذكر والفكر، وأكل الحلال وترك الحرام، .. وغيره، .. من غير خروج عن دائرة الشرع ولا مقدار ذرة، لأن كل من تداوى بغير دواء الشرع لا يشفى مرضه، بل

يزداد مرضاً على مرضه، ولا يزال السالك يترقى بالأدوية القرآنية، والأشفية المحمدية، درجة بعد درجة إلى أن يصل إلى ما تنزَّل منه وهو الصورة الآدمية التى كانت قِبْلَة الملآئكة!!.

فجهاد السالكين والصالحين فى التخلى عن الأوصاف الذميمة، والتحلى بالأوصاف الحميدة .. فالأوصاف الذميمة؛ كالجهل والغضب، والحقد والحسد، والبخل والتعاظم، والكبر والعجب والغرور، والرياء وحب الجاه والرياسة، وكثرة الكلام والمزاح، والتزين للخلق، والتفاخر والضحك، والتقاطع والتهاجر، وتتبع العورات، والأمل والحرص، وسوء الخُلُق

والأوصاف الحميدة؛ كالحلم والعلم، وصفاء الباطن، والكرم، والتذلل والرفق، والتواضع والصبر والشكر، والزهد والتوكل، والمحبة والشوق، والحياء والرضا، والإخلاص والصدق، والمراقبة والمحاسبة، والتفكر، والشفقة والرحمة على الخلق، والحب والبغض فى الله، والتأنى فى الأمور، والبكاء والحزن، وحب الخمول، وحب العُزلة، وسلامة الصدر، والنصح، وقلة الكلام، والخشوع، والخضوع، والحضور، وانكسار القلب، وحُسن الخُلق.

مقامات النفوس

المقام الأول : مقام النفس الأمَّارة

إذا كان القلب متوجهاً إلى الجسد بألوان النعم، وأصناف اللذات الدنيوية والشهوات النفسانية ..كان محجوباً بظلمات المعاصى، المسمَّاة بالرين، أو الطبع، أو الختم، ولا يرى شيئاً من أنوار الغيوب، فلا يبالى بما يفعله من الآثام والذنوب!! .. وأعظم الحجب التى بين العبد وربه: حجب الذنوب – لأنها ظلمانية – وغيرها من

الحجب .. وإن كان لا بد للسالك من السعى فى رفعها،...إلا أنها نورانية، لا توجب البعد بالكلية.

ويُسمَّى " القلب" فى هذه المرتبة بـ " النفس الأمَّارة "، لأنه يتصف بـ : الغضب المذموم، والحقد والحسد، والكبر والتعاظم، والعجب والغرور،....وغير ذلك من الأوصاف الذميمة المُبعدة له عن حضرة ربه، ولا يستغرب هذا الأمر لأن اتباع الشهوات يجعل العزيز ذليلاً. روى أن امرأة العزيز قالت ليوسف الصديق عليه السلام: يا يوسف .. إن الحرص والشهوة صيَّرا الملوك عبيداً، وإن الصبر والتقوى صيَّرا العبيد ملوكا ، فقال لها : (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين).

والخلاص من هذا المقام يكون بالذكر القوى، والوقوف على أبواب الشريعة، ومحاسبة النفس، وتخويفها بالموت وعذاب القبر وما بعده من أهوال الآخرة.

المقام الثانى : مقام النفس اللوَّامة

والنفس فى هذا المقام: سيرها لله، وعالمها: عالم البرزخ، ومحلها: القلب، وحالها: المحبة، وصفاتها: اللوم، والفكر، والعُجْب، والإعتراض على الخلق، والرياء الخفى، وحب الشهرة والرياسة، وقد يبقى معها بعض أوصاف النفس الأمَّارة، لكنها مع هذه الأوصاف .. ترى الحق حقاً، والباطل باطلاً ، وتعلم أن هذه الصفات مذمومة.

ولها أعمال صالحة من قيام، وصيام، وغير ذلك من أفعال البر .. لكن يدخل عليها العُجْب والرياء الخفى، فيحب صاحب هذه النفس: أن يطلع الناس على ما هو عليه من الأعمال الصالحة – مع أنه يخفيها عنهم ولا يظهرهم عليها، ولا يعمل لهم .. بل عمله لله .. إلا أنه يحب أن يُحْمَد ويُثْنَى عليه من جهة أعماله .. ويكره هذه الخصلة أيضاً، ولا يمكنه قلعها من قلبه بالكلية!!، لأنه لو قلعها بالكلية لكان مخلصاً بلا خطر، والحالُ أن المخلصين على خطر عظيم.

لأن المخلص يجب أن يُعرف أنه مخلص، وهذا هو الرياء الخفى، لأن الرياء الجلى: هو العمل لأجل الناس، وهو الشرك الخفى المذموم بالكلية.

ولا يكون الخلاص من هذا الخطر إلا بالفناء عن شهود الإخلاص، بشهود أن المحرك والمسكن هو الله تعالى .. شهود ذوق .

وهذا الشهود متوقف على سلوك طريق المقربين .. وأهل هذا المقام لا يحتاجون إلى الإخلاص، بل لا يخطر ببالهم، لأنهم لا يرون لأنفسهم عملاً حتى يخلصون فيه، ولا يرون لغير الله فعلاً حتى يتضررون به.

والمجاهدة فى هذا المقام حقيقتها ترك العادات .. وأركانها التى لا بد منها ستة: وهى تقليل الطعام، وتقليل المنام، وتقليل الكلام، والإعتزال عن الأنام، والذكر على الدوام، والفكر على التمام وكلها قد تناولناها والحمد لله بالشرح فى فى هذا الكتاب.

والمطلوب من هذه الأشياء الستة: الاعتدال على النهج النبوى، وثمرة هذه المجاهدات أن يدخل السالك فى عالم المِثال، وهو أول مقامات المقربين، وفيه يرى السالك الأمور التى لا تدرك بالحواس الخمس، وقد يكون ذلك مناماً ... وقد يكون بين النوم واليقظة.

المقام الثالث: مقام النفس المُلهَمة

وهى التى سيرها على الله، بمعنى أن السالك لا يقع نظره فى هذا المقام إلا على الله تعالى، لظهور الحقيقة الإيمانية على باطنه، وفناء ما سوى الله تعالى فى شهوده .

وعالمها: عالم الأرواح ... ومحلها: الروح ... وحالها: العشق ... وواردها: المعرفة ... وصفاتها: السخاوة، والقناعة، والعلم، والتواضع، والصبر، والحلم، وتحمُّل الأذى، والعفو عن الناس، وحملهم على الصلاح، وقبول عذرهم، وشهود أن الله تعالى آخذ بناصية كل دابة.

وإنما سُمِّيَت: "ملهمة"، لأن الحق تعالى ألهمها فجورها وتقواها ... وصارت تسمع – بغير آلة – لَمَّة المَلك ولَمَّة الشيطان.

والواجب على صاحب هذا المقام متابعة الشيخ، واتباع الشريعة، وملازمة الأدب، وأن يُكرِه نفسه على قراءة الأوراد، ويقيدها بقيود الطريقة، لأن هذا المقام جامع للخير والشر: فإن غلب خير النفس على شرها .. ترقَّت إلى المقامات العلية، وإن غلب شرها على خيرها .. نزلت إلى أسفل سافلين .. وعلامة غلبة الخير على الشر: أن يرى السالك باطنه معموراً بالحقيقة الإيمانية ... وظاهره معموراً بالشريعة الإسلامية ... وذلك بأن يكون باطنه محققاً بأن ما فى الوجود جارٍ على وفق إرادة الله تعالى، مقدَّر بقدرته تعالى ... وأن يكون ظاهره متلبساً بالطاعات ... متجنباً جميع الكبائر والصغائر ... سواء كان بين الناس ، أو كان فى خلوة.

وسوق النفس فى هذا المقام يكون بالعشق، والهيمان، والشوق إلى الوصال، والاجتماع مع الأحبة، وتذكر لقاء المحبوب، والتمتع بجمال وجه المعشوق، وأسباب تأهيل السالك لمنح هذا المقام، " ستة أمور" – بها صارت الأبدال أبدالاً، وهى: الذكر، والفكر، والجوع، والسهر، والصمت، والعزلة .. وأعظمها الجوع.

فيا أيها الراغب فى هذا المقام: .. لا تترك الرياضة والمجاهدة، وإن صعبتا عليك .. والحظ – بعين سرك – قول الإمام أبى العزائم ﷺ وأرضاه:

تلك الرياضة يا مسكين غايتها ذلٌ ومسكنةٌ إن صح أنت ولىّ

واعلم أن أسرار الربوبية مودعة فى المسكنة والعبودية .. فاسلك طريق الذل والانكسار .. تكن من العبيد الأحرار، فإنك لا تنال مطلباً من المطالب إلا بالعبودية، وقد يحصل بدونها، ولكنه لا يتم ... قال ابن عطاء الله فى الحكم : ((**أدفن وجودك فى أرض الخمول ، فما نبت مما لم يدفن لم يتم نتاجه**))

وقال بعض الصالحين: ((**طريقنا لا يصلح إلا لأقوام كنست نفوسُهم المزابل**)).

فادفن وجودك .. واخف شخصك .. حتى يصدق عليك قوله: (موتوا قبل أن تموتوا) .. وهى حالة من الفناء تنتاب الصادق فى هذا المقام، تجعله لا يبقى معه ميل إلى مال أو ولد أو شئ من الأشياء ... ولا شك أن هذه الحالة هى حالة الأموات. ولما كان المَيِّت يكشف له عن البرزخ، فهذا السالك أيضاً فى هذه الحالة يكشف له عن عالم المثال والبرزخ .. وعالم المثال والبرزخ .. كلاهما شعبتان من عالم الملكوت .

فالواجب عليك أنك إذا لم تكن وصلت إلى هذه الأحوال .. أن تكون متعشقاً لها، طالباً لتحصيلها، لأن كل من طلب شيئاً بإخلاص، وَجِدَّ فى طلبه .. ناله بقدرة الله تعالى.

المقام الرابع : مقام النفس المُطمئنَّة

والنفس فى هذا المقام سيرها مع الله، وعالمها: الحقيقة المحمدية، ومحلها: السر .. وهو باطن الروح، وحالها: الطمئنينة الصادقة، ووارداها: بعض أسرار الشريعة، وصفاتها: الجود، والتوكل، والحلم، والعبادة، والشكر، والرضا بالقضاء، والصبر على البلاء.

ومن علامات دخول السالك فى هذا المقام: أن لايفارق الأمر التكليفى شبراً، ولا يلتذ إلا بأخلاق المصطفى ﷺ .. ولا يطمئن إلا باتباع أقواله .. لأن هذا مقام التمكين، وعين اليقين، والإيمان الكامل.

ولما كان السالك فى هذا المقام يترجم لسانه عما ألقاه الله فى قلبه من حقائق الأشياء، وأسرار الشريعة، فلا يتكلم كلمة إلا وهى مطابقة لقول الله ورسوله، لزمه الإجتماع مع الخلق فى بعض الأوقات ليفيض عليهم مما أنعم الله ﷻ به عليه. ويترجم عمَّا فى قلبه من الحِكَم، على أن يكون له أيضاً مع الله وقتٌ ينقطع فيه لخدمته والوقوف على بابه، ولا يناسب صاحب هذا المقام مخالطة الخلق فى جميع الأوقات، حتى لا يحرم من الترقى إلى ما بعده من المقامات.

لذلك ترى المحفوظين من الكمَّل إذا أظهر الله على أيديهم شيئاً من الكرامات، لا يحسون بها، ولا يعلمون أظهرت على أيديهم كرامة .. أم لا؟!!

روى أن رجلاً منهم: مرَّ برجل فضربه الرجل بحصاة أصابته فى كعبه، فلم يلتفت إلى الضارب ومشى، فسقط الضارب ميتاً، فقيل للولى: أين أنت من العفو والسماح؟!! وهل يجوز لك قتل نفس محرمة؟!! .. فقال: والله ليس لى علم بما تقولون، ولا أعرف الرجل. ولكن جرت عادة الله بإكرام أوليائه من حيث لا يعلمون.

فافهم المقصود .. واطلب من الله العون على تمزيق ما بقى عليك من الحجب، فإن الحجب فى هذا المقام: حب الكرامات، والميل إليها، وحب الرياسة والشهرة والإرشاد والمشيخة، لأجل اجتماع الناس .. وحصول الإهتداء لهم على يديك .. لنيل الثواب .. فإياك والتعرض لشئ من ذلك....لأنه من دسائس النفس!!.

وأما إن أقامك الله وأنت فى هذا المقام، وأشهرك وألبسك ثوب المشيخة – من غير سعى منك ولا حب ولا تطلُّب – فقم بأمر الله .. فإنه خير لك من العزلة، فإذا اطمأنت نفسك طمأنينة رحمانية، ولم تزل قدمك عن اتباع الكتاب والسنة – حتى ولو قدر أُنْملة – بل امتزج دمك ولحمك بإتباع الشرع .. جذبتك يد الألطاف جذبة الكمال .. فلا تدرك شيئاً من أمور الدنيا والآخرة إلا إذا كان حاضراً عندك .. ومتى غاب عنك غبت عنه ... وذلك لأن قلبك لا يفتر عن مشاهدة جمال الحق وجلاله.

المقام الخامس: مقام النفس الراضية

وهذه النفس سيرها فى الله تعالى، وعالمها: اللاهوت، ومحلها: سرُّ السرِّ، وهو ما لا اطلاع عليه لغير الحق سبحانه، وحالها: الفناء .. والفناء هنا عبارة عن محو الصفات البشرية .. فالذى يفنى من العبد صفاته لا ذاته، فلا تفنى ذاته فى ذات الحق جلَّ وعلا، كما يفهمه الجاهلون الذين كذبوا على الله.

بل إن العبد كلما تقرَّب إلى الله بالعبودية، وتخلى عن الصفات الذميمة المناقضة للعبودية، وهبه الله – فضلاً منه – صفات حميدة عوضاً عمَّا تخلَّى عنه من الصفات الذميمة .. والله هو القادر .. والعبد هو العاجز.

والنفس فى هذا المقام .. وهى: "الراضية " .. ليس لها وارد – لأن الوارد لا يكون إلا مع بقاء الصفات، وقد زالت فى هذا المقام حتى لم يبقَ لها أثر – ولذلك كان السالك فى هذا المقام "فانياً".

وصفات هذه النفس: الزهد فيما سوى الله تعالى، والإخلاص، والورع، والرضا بكل ما يقع فى الوجود من غير اعتراض نفس .. ولا انكار قلب .. وذلك لأنه مستغرق فى شهود الجمال المطلق .. ولا تحجبه هذه الحالة عن الإرشاد والنصح للخلق، ولا يسمع أحد كلامه إلا وينتفع به .. كل ذلك وقلبه مشغول بعالم اللآهوت ... وسرِّ السِّرِّ.

وصاحب هذا المقام غريق، غريق فى بحر الأدب مع الله تعالى، ودعوته لا ترد، إلا أنه لا ينطق لسانه بالسؤال حياءً وأدباً، إلا إذا اضطر .. فإنه يطلب ويدعو فلا ترد دعوته، وهو عزيز عند الخلق، محترمٌ عند الأكابر والأصاغر .. لأنه قد نودى من حضرة القرب: (إنك اليوم لدينا مكين أمين)، فصار تعظيم الخلق له قهرياً !، ولذلك لا يركن إليهم.

المقام السادس: مقام النفس المرضية

وهذه النفس سيرها عن الله تعالى، وعالمها: عالم الشهادة، ومحلها: الخفاء، وحالها: الحيرة، وواردها: التنزيه، وصفاتها: حسن الخلق، وترك ما سوى الله تعالى، واللطف بالخلق .. وحملهم على الصلاح، والصفح عن ذنوبهم .. وحبهم، والميل إليهم لإخراجهم من ظلمات طبائعهم النفسانية على أرواحهم النورانية.

ومن صفات هذه النفس: الجمع بين الخلق والخالق، وهذا شئ عجيب!! .. لا يتيسَّر إلا لأصحاب هذا المقام، ولذلك كان السالك فى هذا المقام لا يتميز عن عوام الخلق بحسب ظاهره، ولكن بحسب باطنه فهو معدن الأسرار وقدوة الخيار.

وسميت هذه النفس بـ : "المرضية" لأن الحقَّ قد رضى عنها.

ومعنى سيرها عن الله تعالى: أنها أخذت ما تحتاج إليه من حضرة الله تعالى، وحالها الحيرة المقبولة، وهى المشار إليها بالقول الوارد فى الأثر المشهور: ((ربِّ زدنى فيك تحيُّراً))، وبقول الشبلى ﷺ: ((يا دليلَ المتحيّرين .. زدنى تحيُّراً)).

ومن صفات السالك فى هذا المقام الوفاء بما وعد، ووضع كل شئ فى موضعه، ومن أوصافه كذلك أنه فى كامل شئونه فى الحالة الوسطى بين الإفراط والتفريط، وهذه الحالة لا يقدر عليها إلا الكاملون.

والسالك فى هذا المقام تلوح عليه – فى بدايته – بشائر الخلافة الكبرى، وفى آخره – تخلع عليه خلعتها، وهى خلعة: (**كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها**). فبالحق يسمع، وبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشى .. وهذه نتيجة قرب النوافل، وهو أن يكون التأثير للعبد باستعانته بالحق سبحانه وتعالى.

وتحقيق ذلك أن السالك إذا وصل على مقام الفناء .. تنمحق صفاته الذميمة البشرية – التى هى محل الإنفعال والشقاوة – وذلك بسبب تقربه إلى الله تعالى بالنوافل،

التى هى الرياضات والمجاهدات للنفس، والجهاد الأكبر .. فيهب له مولاه كرماً منه – صفات مناقضة لتلك الصفات .. منتجة بإذن واهبها ... وهذا هو حق اليقين.

المقام السابع : مقام النفس الكاملة

وهذه النفس سيرها بالله، وعالمها: كثرة فى وحدة، ووحدة فى كثرة، ومحلها: الأخفى، وحالها: البقاء، وواردها: جميع ما ذكر من واردات النفوس، وصفاتها: جميع ما ذكر من الصفات المحمودة للنفوس المتقدمة .

وصاحب هذا المقام ليس له مطلب سوى رضوان مولاه، فحركاته حسنات، وأنفاسه عبادة، إن رآه الناس ذكروا الله .. وكيف لا وهو وليُّ الله الكامل!!.

لا يفتر عن العبادة؛ إما بجميع بدنه، أو بلسانه، أو بقلبه .. وهو كثير الاستغفار والتواضع، سروره ورضاه فى توجه الخلق إلى الله، وحزنه وغضبه فى إدبارهم عنه، يحب طالب الحق أكثر من محبة ولده الذى لصلبه. ليس فى قلبه كراهة لمخلوق من المخلوقات، ولا تأخذه فى الله لومة لائم. مراده مراد الحق، يجيبه مولاه فى كل ما طلبه لوقته وساعته.

اللهم إنا نسألك حسن الأدب مع حضرتك، والتمسك بكتابك المقدس، والتأسى بنبيك الكريم، والحفظ من أهواء النفس ووساوس الشيطان، والإقبال الدائم عليك فى كل وقت وآن.

وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم

****

تم بحمد الله وبركة توفيقه

فله سبحانه الشكر والمِنَّة من قبل ومن بعد

المؤلف: فضيلة الشيخ فوزي محمد أبوزيد

نبذة: ولد فضيلته في ١٨ أكتوبر١٩٤٨م، الموافق ١٥ من ذى الحجة ١٣٦٧هـ بالجميزة، مركز السنطة، غربية، ج م ع، وحصل على ليسانس كلية دار العلوم من جامعة القاهرة ١٩٧٠م، ثم عمل بالتربية والتعليم حتى وصل إلى منصب مدير عام بمديرية طنطا التعليمية، وتقاعد سنة ٢٠٠٩م.

النشاط: يعمل رئيسا للجمعية العامة للدعوة إلى الله بمصر، والمشهرة برقم ٢٢٤ ومقرها الرئيسى ١١٤ شارع ١٠٥ المعادى بالقاهرة، ولها فروع في جميع أنحاء الجمهورية.، كما يتجول بمصر والدول العربية والإسلامية لنشر الدعوة الإسلامية، وإحياء المُثل والأخلاق الإيمانية؛ بالحكمة والموعظة الحسنة. هذا بالإضافة إلى الكتابات الهادفة لإعادة مجد الإسلام، من التسجيلات الصوتية الكثيرة والوسائط المتعددة للمحاضرات والدروس واللقاءات على الشرائط والأقراص المدمجة، وأيضا من خلال موقعه على شبكة الإنترنت www.Fawzyabuzeid.com وهو أحد أكبر المواقع الإسلامية فى بابه وجارى إضافة تراث الشيخ العلمى الكامل على مدى خمسة وثلاثين عام مضت، وقد تم إفتتاح واجهة للموقع باللغة الإنجليزية.

دعوته: ١- يدعو إلى نبذ التعصب والخلافات، والعمل على جمع الصف الإسلامى، وإحياء روح الإخوة الإسلامية، والتخلص من الأحقاد والأحساد والأثرة والأنانية وغيرها من أمراض النفس، ٢- يحرص على تربية أحبابه بالتربية الروحية الصافية بعد تهذيب نفوسهم وتصفية قلوبهم.، ٣- يعمل على تنقية التصوف مما شابه من مظاهر بعيدة عن روح الدين، وإحياء التصوف السلوكى المبنى على القرآن والسنة وعمل الصحابة الكرام.

هدفه : إعادة المجد الإسلامى ببعث الروح الإيمانية، ونشر الأخلاق الإسلامية، وبترسيخ المبادئ القرآنية.

۞ قائمة مؤلفات الشيخ المطبوعة

حتى ٢٨ يناير ٢٠١٩م، خمس عشرة سلسلة تحتوى على ١١١ كتاب

م	الكتاب (ط: طبعات، ت: ترجمة)	ط	ت	م	الكتاب(ط: طبعات، ت: ترجمة)	ط	ت
	السلسلة الأولى : فى تفسير القرآن الكريم : ١١			٤	نفحات من نور القرآن ١	١	
١٤	نفحات من نور القرآن ٢	١		٤٨	أسرار العبد الصالح وموسى عليه السلام	٣	
٩١	الآداب القرآنية مع خير البرية ﷺ	١		٩٣	أسرار خلة إبراهيم عليه السلام	١	
٩٦	تفسير آيات المقربين: ج١	١		١٠٢	تفسير آيات المقربين: ج٢	١	
١٠٣	حكمة لقمان وبر الوالدين	١		١٠٥	تفسير آيات المقربين : ج٣	1	
١٠٨	تفسير آيات المقربين : ج٤	١		١٠٩	تفسير آيات المناسبات	1	
	السلسلة الثانية : الفقـــــــه:	**٩**		٢	زاد الحاج والمعتمر	٣	
٥	مائدة المسلم بين الدين و العلم	٢		٥٢	كيف تكون داعياً على بصيرة	١	
٥٤	مختصر زاد الحاج والمعتمر	٢		٧١	الصيام شريعة وحقيقة	١	
٧٢	إكرام الله للأموات	١		٩٥	صيام الأتقياء	١	
١٠٠	دلائل الفرح بالرحمة المهداة	١		١٠٤	سنن الهدى	١	
	السلسلة الثالثة : الحقيقة المحمدية:	**١١**		٧	حديث الحقائق عن قدر سيد الخلائق	٤	
١٣	إشراقات الإسراء ج ١	٢		٢٢	الكمالات المحمدية	٢	
٢٣	الرحمة المهداة	٢		٣٣	واجب المسلمين المعاصرين نحوه ﷺ	٢	
٣٥	إشراقات الإسراء ج٢	١		٦١	السراج المنير	١	
٧٠	ثانى اثنين	١		٨٥	الجمال المحمدى ظاهره وباطنه	١	
٨٧	تجليات المعراج	١		٩٠	شرف شهر شعبان	١	
	السلسلة ٤ : من أعلام الصوفية:	**٧**		١	الإمام أبو العزائم المجدد الصوفى	٢	
٣	الشيخ محمد على سلامه سيرة	١		٤١	المربى الربانى السيد أحمد البدوى	١	
٤٥	شيخ الإسلام إبراهيم الدسوقى	٢		٥٩	الشيخ الكامل السيد أبو الحسن الشاذلى	١	
٩٧	الإمام أبو العزائم، سيرة حياة	١		١٠٧	الشيخ عبد الرحيم القنائى ومدرسته الروحية	١	
	السلسلة الخامسة : الدين والحياة:	**٧**		٢٦	إصلاح الأفراد والمجتمعات فى الإسلام	٢	
٣٤	كيف يحبك الله	٤		٣٩	كونوا قرآنا يمشى بين الناس	٢	

٥٠	قضايا الشباب المعاصر	١		٦٧	بنو إسرائيل ووعد الآخرة	١	
٧٥	أمراض الأمة وبصيرة النبوة	١		٩٢	فقه الجواب (الإجابة على أسئلة	١	

السلسلة٦: الخطب الإلهامية للمناسبات : ٧				١٦	خطب المولد النبوى	١	
١٧	خطب شهر رجب والإسراء والمعراج	١		١٨	خطب شهر شعبان و ليلة الغفران	١	
١٩	خطب شهر رمضان و عيد الفطر	١		٢٠	الحج و عيد الأضحى	١	
٢١	خطب الهجرة ويوم عاشوراء	١		٥٥	الخطب الإلهامية: مجلد مناسبات	٢	

السلسلة السابعة: الخطب الإلهامية العصرية: ١				٧٨	الأشفية النبوية للعصر	١	

السلسلة الثامنة: المرأة المسلمة:		٥		٩	تربية القرآن لجيل الإيمان	١	
43	المؤمنات القانتات	٢		٤٤	فتاوى جامعة للنساء	٢	
74	الحب والجنس فى الإسلام.	١		١٠٦	المرأة المسلمة بين الإباحة	١	

السلسلة التاسعة : الطريق إلى الله: ١٢				٦	طريق الصديقين إلى رضوان رب	٢	
٢٥	طريق المحبوبين وأذواقهم	١		٢٨	المجاهدة للصفاء و المشاهدة	٢	
٣٠	علامات التوفيق لأهل التحقيق	١		٣١	رسالة الصالحين	١	
٣٢	مراقى الصالحين	٢		٥٧	تحفة المحبين في عاشوراء	١	
٦٠	نوافل المقربين	١		٦٤	أحسن القول	١	
٧٩	دعوة الشباب العصرية للإسلام	١		٨٨	مجالس تزكية النفوس ج١	١	
٨٩	مجالس تزكية النفوس ٢	١					

السلسة العاشرة: الأذكار والأوراد: ٧				٨	مفاتح الفرج	٦	
١٥	أذكار الأبرار	١		٣٧	مختصر مفاتح الفرج	٥	
٣٨	أذكار الأبرار صغير	٣		٤٠	أوراد الأخيار تخريج وشرح	٢	
٥٦	نيل التهانى بالورد القرآنى	١		٧٣	جامع الأذكار والأوراد	٢	

السلسلة ١١: دراسات صوفية معاصرة: ١٦				١٠	الصوفية و الحياة المعاصرة	١	
١١	الصفاء والأصفياء	١		١٢	أبواب القرب ومنازل التقريب	١	
٢٩	الصوفية فى القرآن والسنة	٣		٣٦	المنهج الصوفى والحياة العصرية	١	
٤٢	الولاية والأولياء	١		٤٩	موازين الصادقين	١	
٥١	الفتح العرفانى	١		٥٣	النفس وصفها وتزكيتها	١	

٥٨	سياحة العارفين	١		٦٣	منهاج الواصلين	١	
٦٥	نسمات القرب	١		٦٨	العطايا الصمدانية للأصفياء	١	
٧٧	شراب أهل الوصل	١		٨٣	مقامات المقربين	١	
٩٨	آداب المحبين لله	١					

السلسة الثانية عشر : الفتاوى: ٦				٢٤	فتاوى جامعة للشباب	١	
٧٦	فتاوى فورية ج١	١		٨٠	فتاوى فورية ج٢	١	
٨٤	فتاوى فورية ج٣	١		٨٦	فتاوى فورية ج٤	١	
١٠١	يسألونك	١					

السلسة الثالثة عشر: أسئلة صوفية: ٤				٢٧	نور الجواب على أسئلة الشباب	٢	
٦٩	الأجوبة الربانية للأسئلة الصوفية	١		٩٩	إشارات العارفين	١	
١١١	بينات الصدور						

السلسلة الرابعة عشر: حوارات مع الآخر: ٣				٨١	سؤالات غير المسلمين	١	
٨٢	حوارات الإنسان المعاصر	١		٩٤	أسئلة حرة عن الإسلام والمسلمين	١	

السلسلة الخامسة عشر: شفاء الصدور: ٥				٤٦	علاج الرزاق لعلل الأرزاق	٢	
٤٧	بشائر المؤمن عند الموت	٣		٦٢	بشريات المؤمن في الآخرة	١	
٦٦	بشائر الفضل الإلهي	١		١١٠	الدعاء المستجاب	١	

،

أين تجد مؤلفات فضيلة الشيخ فوزى محمد أبوزيد

إسم المكتبة	رقم الهاتف	القاهـرة
مكتبة المجلد العربي	٢٥٩١٢٥٢٤	١١٦ شارع جوهر القائد الأزهر
مكتبة الجندي	٢٥٩٠١٥١٨	سوق أم الغلام ميدان الحسين
دار المقطم	٢٧٩٥٨٢١٥	٥٢ شارع الشيخ ريحان،عابدين
مكتبة جوامع الكلم	٢٥٨٩٨٠٢٩	١٧ الشيخ صالح الجعفرى الدراسة
مكتبة التوفيقية	٢٥٩٠٤١٧٥	١ عمارة الأوقاف بالحسين
بازار أنوار الحسين	٠١٢٢٧٤٧٥٩٣١	٢ زقاق السويلم خلف مسجد الحسين
مكتبة العزيزية	٢٥٩١٥٢٢٤	١١ ميدان حسن العدوى بالحسين
الفنون الجميلة	٢٥٩٠٠٧٨٦	١٣٠ شارع جوهر القائد بالدراسة
مكتبة الحسينية	٢٥٩٠٢٥٤١	٢٢ شارع المشهد الحسيني بالحسين
مكتبة القلعة	٢٥١٠٨١٠٩	١ شارع مُحَمَّد عبه خلف الأزهر
مكتبة نفيسة العلم	٢٥١٠٤٤٤١	٩ ميدان السيدة نفيسة .
المكتب المصري الحديث	٢٣٩٣٤١٢٧	عمارة اللواء ٢ شارع شريف
الأديب كامل كيلانى	٢٣٩٦١٤٥٩	٢٨ شارع البستان بباب اللوق
مكتبة دار الإنسان	٣٣٣٥٠٠٣٣	١٠٩ شارع التحرير، ميدان الدقي
مكتبة مدبولى	٢٥٧٥٦٤٢١	٦ ميدان طلعت حرب
مدبولى مدينة نصر	٢٤٠١٥٦٠٢	طيبة ٢٠٠٠، شارع النصر مدينة نصر
النهضة المصرية	٢٣٩١٠٩٩٤	٩ شارع عدلى جوار السنترال
هلا للنشر والتوزيع	٣٣٤٤٩١٣٩	٦ ش د. حجازي، خلف نادي الترسانة
المكتبة الأزهرية للتراث	٠١٠٠٥٠٤٢٧٩٧	درب الأتراك، خلف الجامع الأزهر
مكتبة أم القرى	٢٥٨٩٨٢٥٣	١٢٨ شارع جوهر القائد الأزهر
المكتبة الأدبية الحديثة	٢٥٩٣٤٨٨٢	٩ شارع الصنادقية بالأزهر
مكتبة الروضة الشريفة	٢٦٤٤٤٦٩٩	٢١شارع د.أحمد أمين، مصر الجديدة
		الإسـكندرية
كشك سونا	٠١٢٢٤٦٠٩٠٨٢	محطة الرمل، أمام مطعم جاد
الكتاب الإسلامي الثقافى	٠١٠٠١٢٣٢٦٩٨	محطة الرمل، صفية زغلول
كشك مُحَمَّد سعيد موسى	٠١١١٤١١٤٣٠٠	٦٦ شارع النبي دانيال، محطة مصر
مكتبة الصياد	٠٣-٣٩٢٨٥٤٩	٤ ش النبي دانيال، محطة مصر
مكتبة سيبويه	٠٣-٥٤٦٢٥٣٩	٢٣ المشيرأحمد إسماعيل، سيدى جابر

أين تجد مؤلفات فضيلة الشيخ فوزى محمد أبوزيد

الكشك الأبيض	٠١٢٨٨٣٤٣٥٥٥	محطة الرمل– أ/ أحمد الأبيض
		الأقــاليم
كشك عبد الحافظ	مُحَمَّد –––––––	الزقازيق– بجوار مدرسة عبد العزيز على
مكتبة عبادة	٠٥٥–٢٣٢٦٠٢٠	الزقازيق – شارع نور الدين
مكتبة تاج	٠٤٠–٣٣٣٤٦٥١	طنطا– أمام مسجد السيد البدوى
مكتبة قربة	٠٤٠–٣٣٢٣٤٩٥	طنطا– ٩ش سعيد والمعتصم أمام كلية التجارة
كشك التحرير	٠١٠٠٨٩٣٥١٨٢	كفر الشيخ – شارع السودان أمام السنترال، أ/سامى أحمد عبد السلام
مكتبة صحافة الجامعة	٠١٠٠٢٢٨٥٢٥٣	المنصورة – شارع جيهان بجوار مستشفى الطوارىء أ/عماد سليمان
مكتبة الرحمة المهداة	٠١٠٠١٤٢١٤٦٩	المنصورة، عزبة عقل، ش الهادى، أ/عاطف وفدى
مكتبة صحافة الثانوية	٠١٠٠٥٧٣١٥٥٠	المنصورة– ش الثانوية بجوار مدرسة ابن لقمان، ح كمال الدين أحمد
صحافة أخبار اليوم ح مُحَمَّد الأتربى	٠١٢٢٤٩١٧٧٤٤	طلخا – المنصورة– بجوار مدرسة صلاح سالم التجارية، أمام كوبرى طلخا
مكتبة الإيمان	٠١٢٢٦٤٦٨٠٩٠	فايد– أ حماده غزالى بربرى
كشك الصحافة	٠١٢٢٧٩٦٠٤٠٩	السويس،ش الشهداء، ح حسن مُحَمَّد خيرى
أولاد عبدالفتاح السمان	٠٩٣–٢٣٢٧٥٩٩	سوهاج– شارع احمد عرابي أمام التكوين المهنى
كشك أبو الحسن	٠١٠٦٩٥١٨٦١٦	قنا– أمام مسجد سيدي عبد الرحيم القناوى
كشك القرايا– إسنا	٠١٠٠٨٦٩٨٦٦٤	القرايا– إسنا – ش السيدة زينب– الحاج مُحَمَّد الريس والأستاذ مُحَمَّد رمضان مُحَمَّد النوبى
كشك حسنى بإسنا	٠١١١١٤٩١٨٢٣	كشك حسنى مُحَمَّد عبد العاطى المنسى أمام مستشفى الرمد بإسنا – الأقصر

أيضاً بدور الأهرام والجمهورية والأخبار والمكتبات الكبرى بأنحاء الجمهورية. ويمكن أيضاً قراءة الكتب وتنزيل نسخة الطباعة مجانا من موقع الشيخ www.fawzyabuzeid.com وعلى موقع www.askzad.com موقع الكتاب العربى ، أوطلبها من الناشر: دار الإيمان والحياة، ١١٤ ش١٠٥ حدائق المعادي بالقاهرة، ت: ٠٢_٢٥٢٥٢١٤٠ ، ف: ٠٢_٢٥٢٦١٦١٨

الفهرست

محتويات الكتاب	الصفحة
المقدمـــة	٤
الباب الأول: وصف النفس	٨
ما النفس	١٠
أنواع النفوس ووصفها	١٥
أولاً: النفس الجمادية	١٨
ثانياً: النفس النباتية	٢٠
ثالثاً: النفس الحيوانية	٢٢
رابعاً: النفس الإبليسية	٢٣
خامساً: النفس السبعية	٢٤
سادساً: النفس الملكوتية	٢٦
إشارة لطيفة الخاطر الأول	٢٧
سابعاً: النفس القدسية	٣١
الفصل الثاني: أساس جهاد النفس	٣٢
الدواء والطبيب النفسي	٣٤
الأسس الأربعة	٣٧
الأساس الأول: المطعم الحلال	٣٧
الأساس الثاني: تحصيل العلم الشرعي اللازم والعمل به	٤٠
الأساس الثالث: إخلاص العمل لله أو العمل لوجه الله	٤٣
الأساس الرابع: المرشد العالم العامل	٥٣
نفسك هي الطريق إلى الله	٦٠
الفصل الثالث: تزكية النفس	٦٢
في صحبة المرشد والمعلم	٦٤
العمل وإحكام أساس البناء	٦٤

التوبة النصوح	٦٥
علم تزكية النفوس	٦٦
أولاً: ماذا أجاهد؟	٦٦
الفرق بين خواطر النفس ووساوس الشيطان	٦٧
ثانياً: كيف أزكي أو أجاهد نفسي؟	٦٩
الوسائل المُعِينة على تزكية أو جهاد النفس	٧٢
أولاً: الإقلال من الطعام	٧٢
ثانياً: الإقلال من الكلام	٨٠
ثالثاً: الإقلال من المنام	٨٥
رابعاً: الإقلال من مخالطة الأنام	٩١
خامساً: ذكر الله والتفكر على الدوام	٩٥
ذكر الله بتلاوة القرآن الكريم	٩٨
ذكر الله بالاستغفار والمداومة على الأوراد والأذكار	١٠٤
بسم الله	١٠٧
أذكار الصباح والمساء	١٠٨
سِرُّ: "ما شاء الله لا قوة إلا بالله	١٠٩
ذكر: لا إله إلا الله	١١١
الصلاة على رسول الله ﷺ	١١٢
الغاية من تزكية أو جهاد النفس	١١٤
أولاً: التخلق بأخلاق رسول الله ﷺ	١١٤
ثانياً: لتصحيح الوجهة وشحذ الهمَّة في الطريق	١١٧
ثالثاً: أن يصير حاكماً لمملكة نفسه لا عبداً لها	١٢١
رابعاً: الرجوع للأصل والوطن الأول	١٢٥
خامساً: أن يبلغ مراتب القرب	١٣٢
سادساً: أن يتخلق بأخلاق الله	١٣٤
سابعاً: أن ينال الفتح النورانى	١٣٦

الفصل الرابع: مراقي ومقامات النفس	١٤٤
مقامات النفوس	١٤٧
المقام الأول: مقام النفس الأمَّارة	١٤٧
المقام الثاني: مقام النفس اللوَّامة	١٤٨
المقام الثالث: مقام النفس المُلهَمة	١٤٩
المقام الرابع: مقام النفس المطمئنة	١٥١
المقام الخامس: مقام النفس الراضية	١٥٣
المقام السادس: مقام النفس المَرضية	١٥٤
المقام السابع: مقام النفس الكاملة	١٥٥
السيرة الذاتية لفضيلة الشيخ فوزى محمد أبوزيد	١٥٦
قائمة المؤلفات لفضيلة الشيخ المؤلف	١٥٧
قائمة المكتبات ودور النشر للحصول على المؤلفات	١٦٠

لملاحظات القارىء الكريم

النفس وصفها وتزكيتها

النفس البشرية معرضة دائماً للغواية؛ فإذا تُرِكَتْ وحالها دون نصح أو تربية؛ مالت إلى الإعوجاج حتى يصبح ذلك عادتها وغايتها، فتسقط فى مكائد الهوى والشيطان، وهذا ما يقع فيه الكثيرون.

ولكى تنتصح النفس؛ تحتاج إلى طبيب عارف بها وبخواطرها الشيطانية والملائكية، ومرَّ بالتجربة السلوكية وتفهم باطن الإنسان قبل ظاهره، فإذا ما تيسر هذا للمريد الصادق، والتزم مع طبيبه وانتصح بأمره، عندها يرشده طبيبه النفسى المرشد المربِّى فيساعده على تخطى عقبات نفسه، فيصبح المريد سيِّداً على مملكة نفسه بعد أن كان عبداً فى بلاطها، فيتحلَّى بمحمودالصفات، ويتخلَّى عن مذمومها؛ فتتكامل شخصيته ديناً ودنيا، بفضل حكمة الطبيب المربِّى وعلمه وإخلاصه.

ولذلك رأينا الصوفية الذين بلغوا الغاية فى جهاد النفس، قد برعوا فى وصفها، وشرح عللها، و طرق تزكيتها، وإن كان البعض لم يفرِّق بدقة بين أوصاف النفس ومقاماتها، إلا أنهم عموما خير من تحدث عن النفس، لأن حديثهم عن تجربة، وليس دراسة فكر وفلسفة فقط!

والحمد لله قد وفقنا الموفق ﷻ، فانتهجنا فى هذا الكتاب منهجاً جديداً وفريداً فى الحديث عن النفس؛ حيث بيَّنَّا أنواع النفوس، من حيث أغراضها ووظائفها ومنازعها فى المملكة الإنسانية، وذلك من سياق القرآن والهدى النبوى.

وكذلك تحدثنا عن علل النفس وأمراضها، ووصفنا الدواء الناجع لها من شفاء القرآن وصيدلية النبى العدنان وهدى السلف الصالح، ثم أوضحنا بعد ذلك المقامات التى تترقى فيها النفس فى جهادها، ووصفنا كلّ مقام وحال صاحبه، والواردات والإلهامات والإشراقات التى تفاض فيه، واسترشدنا بأحوال الصحابة والسلف الصالح فى مجاهداتهم الفادحة لأنفسهم رضى الله عنهم أجمعين.

وحسبنا؛ أن هذا الكتاب قد يعد أول كتاب مكتمل فى هذا المجال الدقيق.

والله من وراء القصد وهو يهدى لأقوم سبيل.

دار الإيمان والحياة ١١٤ ش ١٠٥ المعادى - ت : ٢٥٢٥٢١٤٠ القاهرة

القائمة الكاملة لمؤلفات الأستاذ فوزى محمد أبو زيد بداخل الكتاب